الناصر محمد بن قلاوون وسيف الدين تنكز: من الانسجام إلى التناقض

طه ثلجي الطراونة *

ملخص

تتناول هذه الدراسة العلاقة ما بين السلطان الناصر محمد بن قلاوون، ونائبه في دمشق الأمير سيف الدين تنكز الحسامي الناصري، التي طاولت ثلاثة عقود من المودة والانسجام غير المألوفين في عصر المماليك المشحون بالفتن وحركات العصيان، ولكنها تنهار وتتحطم، لتبين أنهما ابنا عصرهما بكل تعقيداته، وأبرزها فقدان الثقة بين أبناء الطبقة الحاكمة.

Abstract

This study deals with the relations between Sultan al-Nasir Muhammad b.Qalawun and his viceroy in Damascus, Tengiz al-Husami, which extended nearly three decades of unusual amicable friendship. But its dramatic collapse proved that both of them belonged to their age whose main characteristic was the lack of confidence among the members the ruling class.

* قسم التاريخ، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة مؤتة، الكرك، الأردن.

تاريخ استلام البحث: 2006/3/23   تاريخ قبول البحث: 2007/3/11

تشكّل العلاقة بين السلطان الناصر محمد بن قلاوون، ونائبه في دمشق الأمير سيف الدين تنكز حالة فريدة في تاريخ دولة المماليك بأكمله، تستدعي الوقوف عندها وتأملها لجملة من الأسباب؛ فعهد الناصر محمد بن قلاوون هو أطول عهود سلاطين المماليك كافة (693 هـ/1293-741هـ/1340)[1] كما أن عهد تنكز هو أطول عهود نواب السلطنة في دمشق (712هـ/1312-740هـ/1341)، وعمل الرجلان معاً حوالي ثلاثة عقود ارتبطا خلالها بعلاقة أظهرت تنكز وكأنه سلطان للشام بدعم الناصر محمد وتأييده، الذي قدمه على سائر نواب السلطنة في بلاد الشام، وأخذت تلك العلاقة تتوثق بمرور السنين، فأصهر السلطان لتنكز وتزوج ابنته، وعزم على تزويج اثنتين من بناته لولدي تنكز.

ورغم هذا الدفء في العلاقة بين الرجلين وهما في مقتبل العمر، زحف البرود عليها وهما في سن الكهولة حتى بلغ الانجماد الذي أودى بحياة تنكز ومصادرة ثروته بأمر صديقه السلطان في المحرم سنة 741هـ/تموز 1340م، ليلحقه القدر به في ذي الحجة 741هـ/حزيران 1341م.

ولعل تدقيق النظر في هذه العلاقة يكشف نقطة ضعف النظام السياسي في دولة المماليك التي لازمته منذ قيامه إثر مصرع الملك المعظم تورانشاه بن الصالح أيوب سنة 648هـ/1250م. فقيام حكم على الدم[2]، وتبني البطش سياسة للوصول إلى عرش السلطنة على قاعدة قاتل الملك يصبح ملكاً لدليل ضعف مزمن في ذلك النظام، وقد يكون هذا سبباً، وقد يكون نتيجة بحسب الوجهة التي ينظر منها لحالة فقدان الثقة ما بين السلاطين والأمراء المماليك من ناحية، ولحالة التباغض والتحاسد ما بين الأمراء المماليك أنفسهم من ناحية أخرى، ويضاف إلى ذلك خشونة المماليك في التعامل بعضهم مع بعض، وفي التعاطي مع المجتمع الذي حكموه أو تحكموا فيه.

إن هذه الورقة ليست لدراسة حياة الناصر محمد وأعماله، ولا لدراسة حياة تنكز وأعماله كذلك، فثمة دراسات تناولتهما،[3] إنما تبحث العلاقة ما بين السلطان الناصر محمد، وسيف الدين تنكز في مراحلها جميعها وتبدأ بعودة الناصر محمد لعرش السلطنة للمرة الثالثة، ودخول تنكز في خدمته، ثم تعيينه لنيابة السلطنة في دمشق، وتقديم السلطان له على سائر نواب السلطنة في الشام، وتقربه للسلطان والأعمال التي قام بها في هذا المجال، وتكريم السلطان له، والمصاهرة بينهما، وأخيراً تدهور تلك العلاقة وصولاً إلى الأمر السلطاني باعتقال تنكز وقتله ومصادرة أمواله، وأخيراً تحليل ظروف ذلك التغير.

فقد استعاد الناصر محمد بن قلاوون عرش السلطنة للمرة الثالثة، بتتويجه في قلعة القاهرة في 2 شوال 709 هـ/5آذار 1310م، بحضور الخليفة، وقاضي القضاة، والأمراء وكبار موظفي الدولة وهو في الخامسة والعشرين من العمر،[4] ومع أن هذا السلطان لم يكن مملوكاً مسه الرق، بل ولد حراً، وينطلق من إرث ملكي مكين، إذ هو ابن سلطان، وأخو سلطان إلا أنه كان مملوكاً من حيث التربية والنشأة، والتطبيع الاجتماعي، والجماعات المرجعية التي تعلم منها.

وإلى جانب ما مر به من تجارب قاسية، كمصرع أخيه الأشرف خليل، وخلعه هو نفسه عن العرش مرتين، مع ما تمتع به من فطنة وذكاء وقوة ذاكرة[5]، ربما حلّقت به مراراً ليستعرض ما حصل قبله، وما مر به من قتل وتآمر، فإنه

عاد هذه المرة إلى العرش أكثر تفهماً وإدراكاً لطبيعة نظام المماليك وتكتلاته ومؤامراته ضد من يشغلون موقع السلطان.

عاد الناصر محمد للسلطنة للمرة الثالثة بهذا الفهم، وفي وقت انحسرت فيه الأخطار الخارجية التي كان تهدد بلاد الشام، الشق الشمالي للدولة، التي استحوذت جانباً كبيراً من اهتمامات أسلافه، فخطر الفرنجة دُحر منذ سنة 690هـ/1291م على يد أخيه الأشرف خليل[6]، وخطر المغول لم يعد يخشى بعد هجومهم الفاشل سنة 712هـ/1312[7]، وقد ترك هذا الواقع الجديد أثره في علاقة السلطان مع كبار الأمراء المماليك.

ففي هذا الواقع الجديد لم يعد ينظر للسلطان على أنه قائد في الحرب، والأول بين أنداد متكافئين مثلما كان في السابق، كما أن السلطان لم يعد ينظر لنفسه كذلك؛ لأنه أصبح -كما يفهم من وصف ابن تغري بردي له- حاكماً مستبداً مطلق النفوذ، إذ يقول: "وكان يستبد بأمور مملكته وينفرد بالأحكام، حتى أنه أبطل نيابة السلطنة في ديار مصر ليستقل هو بأعباء الدولة وحده"[8]، ولأنه أصبح كذلك، تعاظمت مخاوفه الأمنية، التي كلما تزايدت، عمد إلى تأكيد دوره السلطوي، ويقول ابن تغري بردي في هذا السياق في مكان آخر: "أمسك إلى أن مات مائة وخمسون أميراً".[9]

فلما أحس السلطان بقوة موقفه في الداخل، الذي تزامن مع انحسار الأخطار الخارجية عن بلاد الشام، فإنه لم يعد منشغل البال بها، وفوّض أمرها إلى أحد مماليكه المقربين، وهو تنكز الحسامي الناصري.

جلب تنكز إلى مصر وهو حدث فنشأ بها واشتراه أولاً السلطان الأشرف خليل بن قلاوون، ثم صار للسلطان حسام الدين لاجين، فلما قتل لاجين سنة 698 هـ/1298، وأعيد الناصر محمد للعرش للمرة الثانية أصبح تنكز من مماليكه،[10] وقد رقاه السلطان قبل أن يتوجه إلى الكرك سنة 708 هـ/1308 إلى رتبة أمير عشرة[11]، وأرسله بعدها إلى نائب السلطنة في دمشق، الأمير آقوش الأفرم[12]، الذي اتهم تنكز أن معه كتباً إلى أمراء الشام، ففتشه وعاقبه، ولما عاد تنكز إلى السلطان وأخبره بما حدث له، وعده إن عاد إلى الملك، فإنه سيعينه نائباً للسلطنة في دمشق[13]، وقبل أن يمضي شهر على عودة الناصر محمد لعرش السلطنة وفي أواخر شوال 709هـ/آذار 1310م، رقى اثنين وثلاثين أميراً إلى رتبة أمير طبلخاناه[14]، وكان تنكز واحداً منهم.[15]

ويذكر صلاح الدين الصفدي في ترجمته لتنكز خبراً مرتبكاً يفيد تهيئة تنكز وتدريبه على فن الإدارة والحكم، وكرره كل من ابن شاكر الكتبي وابن حجر العسقلاني، وقبله دون مناقشه بعض الباحثين المحدثين الذين تناولوا حياة تنكز، ونصه: "... فلما حضر (السلطان) من الكرك، جعل الأمير سيف الدين أرغون الدوادار[16] نائب السلطنة بمصر بعد إمساك الجوكندار الكبير[17]، وقال لتنكز ولسودي[18] احضرا كل يوم عند أرغون، وتعلما منه النيابة والأحكام، فبقيا كذلك سنة يلازمانه، فلما مهرا جهز سيف الدين سودي إلى حلب نائباً، وسيف الدين تنكز إلى دمشق نائباً".[19]

وإذا حاولنا ترتيب الوقائع وفق كتب التاريخ، فإنها تبدو مغايرة ولكنها أوضح، فبعد عودة السلطان الناصر محمد إلى العرش للمرة الثالثة عُين في نيابة السلطنة في مصر الأمير بكتمر الجوكندار يوم 23 شوال 709هـ/26

آذار 1310[20]، وبقي في هذا المنصب حتى اعتقل في 17 جمادى الأولى 711 هـ/2 تشرين ثاني 1316، وعُين بعده في هذا الموقع الأمير بيبرس الدواداري المنصوري المؤرخ[21]، صاحب كتاب زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، وقد استمر في هذا المنصب حتى تم اعتقاله هو الآخر في 2 ربيع الآخر 712 هـ/7 آب 1312[22]، وفي الوقت نفسه عُين سودون الجمدار (سودي) نائباً للسلطنة في حلب، وعُين تنكز نائباً للسلطنة في دمشق، وبعد شهر؛ أي في 1 جمادى الأولى 712 هـ/5 أيلول 1312، عُين الأمير أرغون الدوادار نائباً للسلطنة في مصر.[23]

وبناءً على ذلك، فإذا كان هناك ثمة تهيئة وتدريب لبعض الأمراء على فنون الحكم الإدارة، فلعلها كانت تجري سراً، قبل أن يقدم الناصر محمد على إجراء عملية تطهير في صفوف المماليك القدامى المعارضين له، وإحلال آخرين من مماليكه محلهم في مطلع سنة 712 هـ/صيف 1312، حينما أمّر في يوم واحد ستة وأربعين أميراً[24].

وبالعودة إلى تنكز، وتعيينه في نيابة السلطنة في دمشق، وحداثة تجربته، فقد أدهشت ابن تغري بردي الذي قال في ذلك: " ثم خلع السلطان على تنكز الحسامي الناصري بنيابة دمشق دفعة واحده عوضاً عن آقوش نائب الكرك،[25] وتنكز هذا أول من رقّاه من مماليكه إلى الرتب السنية" [26]، ولتلك الدهشة ما يسوغها نظراً لما لدمشق من أهمية تستوجب على من يتولى نيابة السلطنة فيها عدا عن الولاء للسلطان؛ التجربة والخبرة والكفاءة، والتدرج في أعمال النيابة في نيابات أخرى قبل قاعدة الشام، والعاصمة الثانية للدولة.

ومهما يكن من أمر فقد توجه تنكز إلى دمشق، ووصلها في 20 ربيع الآخر 712هـ/24 آب 1312م[27]، ورُسم له ألاّ يستبد بشيء إلاّ بعد الاتفاق مع الأمير سيف الدين أرقطاي[28]، والأمير حسام الدين طرنطاي البشمقدار،[29] ويفهم مما رسم به السلطان لتنكز أنه ترأس مجلساً لنيابة السلطنة بدمشق، ولم يكن نائباً متفرداً. فهل كان السلطان يريد لتنكز النجاح في مهمته فجعل معه اثنين من الأمراء ذوي الخبرة؟ أم أن شكوكه في كل المحيطين به دفعته إلى إحاطة نائب دمشق الجديد بمن يبلغه سراً بما سيخفيه تنكز عنه؟ ومن خلال تطور العلاقة بين الرجلين، يمكن الاجابة بنعم عن السؤال الأول حتى سنة 732هـ/1331 م!.

ويفيد خبر أورده صلاح الدين الصفدي في كتاب أعيان العصر وأعوان النصر، أن تنكز كان ممتعضاً من ذلك الوضع، حيث يقول: "... فحضر الثلاثة على البريد، ولما كان بعد قليل بلغ تنكز أن الأمراء بدمشق يتوجهون بعد الخدمة إلى دار الحاج أرقطاي ويأكلون على سماطه، فما حمل ذلك تنكز فأخرجه إلى حمص في يوم الأحد سابع شهر رجب سنة ست عشرة وسبعمائة"[30]، وهكذا استجاب السلطان لطلب تنكز ونقل أرقطاي، وبعد سنتين ونصف نقل حسام الدين طرنطاي إلى حمص أيضاً،[31] وبذلك أصبح تنكز حراً في نيابته من غير رقابة ظاهرة.

ولعل إحساس السلطان بوفاء تنكز له، وقبل أن يتخلص الأخير من أرقطاي وطرنطاي، جعله يقدم على إجراء لم يكن مسبوقاً في النظام الإداري المملوكي، وهو تقديم تنكز على سائر نواب السلطنة في الشام، فقد كتب السلطان في المحرم سنة 714هـ/ أيار–نيسان 1314لنواب حلب وحماه وحمص وطرابلس وصفد بأن أحداً منهم لا يكاتب السلطان، وإنما يكاتب الأمير تنكز نائب الشام، ويكون هو المكاتب في أمرهم للسلطان،[32] ويقول شمس الدين الشجاعي في ذلك: "وحكّمه بالشام جميعه تحكيماً لم يحصل لغيره، ورسم لنواب الأقاليم الكبار، مثل: نائب حلب

وطرابلس وصاحب حماه وغيرهم أن يطالعوه بأحوالهم وما يتجدد لهم وهو يطالع بها لمولانا السلطان، وإذا حضرت كتب نواب الأقاليم للسلطان تعرض على الأمير سيف الدين تنكز وهي مفتوحة فيقرأها ويعلم مضمونها ثم يختمها ويكتب إلى السلطان من عنده كتاب على نصها، ويعرفه بموجبها ويدرجها على كتابه، ويرسلها صحبة من حضر بها إليه من جهة النواب وكذلك إذا أرسل السلطان لأحد من النواب كتاب يعرض عليه قبل الجواز به ...."(33)

ولما لم يرقْ هذا الإجراء غير المألوف في بلاد الشام لنواب السلطنة، أخذ نائب السلطنة في صفد، الأمير سيف الدين بلبان طرنا(34)، ينكر ذلك، فكاتب فيه تنكز السلطان حتى عُزل في الشهر التالي؛ أي في صفر 714هـ/أيار–حزيران 1314م، وحُمل مقيداً إلى مصر وسجن في قلعة القاهرة.(35)

ويبدو أن هذا الامتياز الذي حظي به تنكز، والغلظة في معاقبة الأمير الذي أنكره، دفع تنكز إلى الشعور بالتعالي، وأخذ يستكبر على الأمراء الآخرين، ففي أول المحرم سنة 715هـ/7 نيسان 1315 م، قاد تنكز العسكر من دمشق إلى حلب، وكان بزي الملوك، و لم يجرِ عادة نائب قبله بذلك، وتبعه عسكر صفد وحمص وحماه وطرابلس، فلما مرَّ تنكز بحماه أعرض عن صاحبها الملك الأيوبي، المؤيد عماد الدين إسماعيل أبي الفداء (36)، لكونه لم يتلقه من بُعد، و لم يأكل ما أعده له أبو الفداء من طعام(37)، هذا مع العلم أن الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل، كان أثيراً عند السلطان الناصر محمد، ويقول ابن تغري بردي في ذلك:

"حظي عند السلطان إلى الغاية، حتى إن الملك الناصر رسم إلى نواب البلاد الشامية أن يكتبوا له "يقبل الأرض" وصار تنكز مع جلالة قدره يكتب له "يقبل الأرض"، ويكتب السلطان له "أخوه محمد بن قلاوون".(38)

واستمرّ تقديم تنكز على سائر نواب السلطنة في بلاد الشام طيلة فترة ولايته، فزاد تعاظمه واعتداده بنفسه إلى ما يطاول الغرور. ويؤيد ذلك ما ذكره الشجاعي إذ قال: "... وحصل له من مولانا السلطان التبجيل العظيم بحيث أنه إذا سأل أمراً لا يرد عليه، وإذا فصل حكماً لا يرد عليه، وإذا أشار بأمر فمندوب إليه ومهما شاء فعل بالشام لا يرد ما من أحكامه ولا ينقص إبرامه، وبلغ من تحكمه بالشام وتصرفه في الأنام إلى أن صار يمسك من يختار من الأمراء الكبار المقدمين الألوف والطبلخانات من خرج عن الطريق أو زاغ عن التحقيق ضربه الضرب الشافي وأخذ سيفه واعتقله بغير مرسوم، ويرسل يعرف السلطان بما صنع ذلك الأمير وأنه اعتقله بهذا الذنب الحقير فلا ينكر عليه في شيء من ذلك ويعود بالجواب عليه بالشكر على ذلك وتسديد رأيه، وأنه المتصرف فيما يختاره، ويودع ذلك الأمير الاعتقال".(39)

وتشير الشواهد المتوافرة إلى أنه كلما تذمر أحد من نواب السلطنة في الشام من تقديم تنكز، كان السلطان يردعه، ويؤكد تقديم تنكز، ففي شهر رمضان 720هـ/أيلول 1320م قُبض على الأمير علم الدين سنجر الجاولي(40)، نائب غزة، وسجن بالإسكندرية، وصودرت أمواله، لقلة اكتراثه بالأمير تنكز نائب الشام، وأنف من تقديمه عليه، وهو أي الجاولي، الأقدم والأسبق خدمة.(41)

وفي السياق نفسه، كتب تنكز إلى السلطان في المحرم 728هـ/تشرين ثاني 1327م، يشكو من الأمير طينال، نائب طرابلس وترفعه عليه، فكتب بالإنكار على طينال(42)، وألا يكاتب في المهمات وغيرها إلا نائب الشام، ولا

يجهز بعدها مطالعة إلى مصر،[43] ويعني الرد السلطاني بلغة الإدارة الحديثة، أن تنكز هو المرجع الإداري لنواب السلطنة في بلاد الشام، وأن عليهم وخاصة طينال، نائب طرابلس ألاّ يتجاوز مرجعه.

ولما لم يرتدع طينال، عاد تنكز بعد خمس سنين، واستغل فرصة عودة السلطان من الحج، وكتب إليه في المحرم 733 هـ/أيلول-تشرين أول 1332، مهنئاً بعودته سالماً، ومستأذناً بالقدوم إلى القاهرة، وشكا من الأمير طينال، نائب طرابلس لترفعه عليه وخرق حرمته، وإعراضه عما يكاتبه فيه، فأجيب تنكز بالشكر والأذن له بالحضور، وعُزل طينال، وعين الأمير قرطاي[44] بدلاً منه في نيابة طرابلس، ونقل طينال إلى نيابة غزة إهانة لـه[45]، وأوصى السلطان الأمير بيغرا[46]، الذي كلف بتقليد الأميرين المذكورين منصبيهما، أنه إذا رأى من طينال كرهه لنيابة غزة، يقبضه ويحضر به مقيداً إلى مصر.[47]

وفي الوقت نفسه، وربما لزيادة التضييق على طينال وكنوع من المبالغة في إهانته أضيفت غزة إلى نائب الشام، يقول اليوسفي في ذلك: "ورسم له في التقليد أن تضاف نيابة غزة إلى نائب الشام في أمور ولاياتها وأحوالها جميعها، وأن تكون مكاتباته إلى الشام، ولا يكتب إلى مصر".[48] وكرر ذلك المقريزي بقوله: "وفيه كتب بإضافة غزة إلى نيابة الشام، وأن نائبها يكاتب نائب الشام فيما يعن له من الأمور ولا يكاتب السلطان" [49]، ولقد كانت غزة نيابة قائمة بذاتها بعد عودة الناصر محمد للعرش للمرة الثالثة من سنة 711هـ/1311 وحتى هذا الوقت 733هـ/1332.[50]

زيادة على ما جرى مع طينال، فقد كتب تنكز سنة 736 هـ/1335م إلى السلطان يشكو من نائب صفد، الأمير أيتمش المحمدي[51]؛ لأنه لم يكن يمتثل أمره، ويستبد بغير مراجعته، فأجيب تنكز بمراعاته وإكرامه لمكانته عند السلطان، وما لبث أن مات بعد قليل.[52]

وفي المحرم 737هـ/آب-أيلول 1336 قبض على الأمير بهادر البدري[53] لجرأته على الأمير تنكز نائب الشام، وعلى الأمير قطلوبغا الفخري[54] مقدم الجيش الشامي، وإفحاشه القول لهما،[55] وقد كتب تنكز للسلطان، وأبلغه بما وقع من بهادر البدري بحق قطلوبغا الفخري وبحقه هو، ولما وصل الخبر للسلطان، أرسل طاجار (طاشار)[56] الدوادار إلى الشام، وأمره أن يضرب بهادر ثلاثمائة عصا وأن يقطع لسانه، فشفع فيه الأمراء، الذين ضرب أمامهم نحو من مائتي عصا، وقيد وسجن في قلعة دمشق.[57]

ويمضي الناصر محمد ليس فقط في إعلاء شأن تنكز وتقديمه على نواب السلطنة في الشام والمبالغة في عقاب من ينتهك حرمته، بل باستشارته في الأمور المهمة، وبتنفيذ ما يشير به على السلطان، أو يقترحه هو من تلقاء نفسه، ويقول الصفدي في ذلك: "كان السلطان لا يفعل شيئاً في الغالب حتى يسير إليه يستشيره فيه"[58]، ومن ذلك أنه في صفر 718هـ/نيسان 1318 م، توجه الأمير مغلطاي الجمالي[59] إلى صفد لتقليد الأمير طغاي الحاصلي[60] نيابة حلب، وكتب إلى الأمير سيف الدين أرقطاي نائب حمص بنيابة صفد عوضاً عن طغاي، وأسر السلطان إلى الأمير مغلطاي القبض على طغاي، فتوجه مغلطاي إلى صفد بعد اجتماعه بالأمير تنكز نائب الشام وقبض على طغاي وأحضره إلى القاهرة فقُيد وسُجن في قلعتها، ثم أخرج بعد ذلك إلى الإسكندرية وكان آخرالعهد به.[61]

ومن ذلك أيضاً، أنه في شعبان 732هـ/أيار1332م، وصل تنكز إلى القاهرة، وكان يرافقه كاتب السر في دمشق شرف الدين أبو بكر بن شمس الدين محمد بن شهاب الدين محمود[62]، ولما مثلا بين يدي السلطان، أعجب السلطان بشرف الدين أبي بكر، وأخذ تنكز يثني عليه بأنه أمين مأمون الغائلة، ولما كان محي الدين بن فضل الله[63]، كاتب السر في مصر، قد ثقل سمعه، رأى السلطان أن ينقله إلى دمشق، ويولي بين يديه بدلاً منه شرف الدين أبا بكر، وحدث السلطان الأمير تنكز في ذلك، فما كان منه إلاّ موافقة السلطان فيما أراد.[64]

وفي منتصف جمادى الأولى 735هـ/أواخر شباط 1335م تغير السلطان الناصر محمد على نائب السلطنة بطرابلس الأمير جمال الدين آقوش الأشرفي، المعروف بنائب الكرك، بسبب قرصان إفرنجي اعتاد مهاجمة ميناء طرابلس فظفر به آقوش الأشرفي وصادر ما لديه، فتوجه للسلطان وادعى أنه تاجر وأتى بهدية للسلطان، فاشتد غضب السلطان على آقوش الأشرفي إضافة لما في نفسه من بغض له،[65] فأرسل السلطان الأمير برسبغا الحاجب[66]، للقبض على آقوش فاحضره إلى دمشق، واعتقله تنكز في صرخد[67]، ثم نقل بعد ذلك إلى الإسكندرية وسجن فيها، ومات في السنة التالية.[68]

ولما أرسلت حملة إلى سيس[69] في شعبان 737 هـ/آذار1337، بسبب وصول رسول القان موسى[70] وعلى بادشاه[71] لطلب النجدة على الشيخ حسن الكبير[72] وطغاي بن سونتاي[73]، وأولاد دمرداش [74]، ليكون على بادشاه نائب السلطنة ببغداد، استشار السلطان الناصر محمد، نائب السلطنة بدمشق الأمير تنكز والأمراء المماليك الآخرين، واستقر الرأي على إرسال الحملة إلى بلاد الأرمن.[75]

وإذا كانت استشارة تنكز وغيره من الأمراء المماليك في إرسال الحملة من الأمور الاعتيادية، فإن اللافت للنظر فيما يخص موضوع هذه الدراسة، ما حصل بعد إرسالها، فقد انطلقت الحملة من القاهرة إلى سيس في شعبان 737هـ/آذار1337م. وعندما وصلت إلى دمشق تلقاها الأمير تنكز، ولم يحفل بالأمير أرقطاي مقدم العسكر، لما في نفسه منه، وهو نفسه أرقطاي الذي كان هو وطرنطاي البشمقدار إلى جانب تنكز في بداية تعيينه لنيابة السلطنة في دمشق، ووصلت الحملة حلب في أواخر رمضان 737 هـ/أوائل أيار 1337م، ومعها عساكر دمشق بقيادة الأمير قطلوبغا الفخري، وكان قائد الحملة، نائب حلب الأمير علاء الدين الطنبغا[76]، ونزلوا على الإسكندرونة[77] أول بلاد سيس فقدم عليهم البريد من دمشق بأن تكفور (الملك الأرمني ليو الخامس) وعد بتسليم القلاع للسلطان، فلترد المجانيق وآلات الحصار إلى بغراس[78]، وليقيم العسكر على مدينة إياس[79] حتى يرد مرسوم السلطان بما يعتمد في أمرهم، وكان التركمان قد أغاروا على بلاد سيس ودمروها، فأرسل الملك الأرمني رسالة إلى السلطان، فلم يأذن السلطان للمرسل بالقدوم إليه؛ لأنهم لم يعلموا نائب الشام، الأمير تنكز بقدومهم، فعادوا إلى الملك الأرمني، الذي بعث هدية إلى تنكز، وسأله منع العسكر من بلاده، وأنه يسلم القلاع التي وراء نهر جهان[80] للسلطان، فكتب تنكز إلى السلطان بذلك، وأرسل إلى علاء الدين الطنبغا نائب حلب، وهو المقدم على العساكر جميعاً بمنع الغارة، وردّ الآلات إلى بغراس، فردها الطنبغا، ولما زحف العسكر على إياس بغير أمره وصل إليهم كتاب نائب الشام فعادوا إلى مواقعهم[81].

وفي السنة التالية أنعم السلطان على الأمير تنكز نائب الشام بثلاث ضياع من فتوح سيس وهي قلعة كوارة[82]، وقلعة نجمة[83]، وقلعة سرفندكار[84]، ورسم أن يحمل إليها من حماة وحمص وطرابلس عشرون ألف غرارة[85] غلة برسم تقاويها[86] وتخضيرها، وعين لكل ضيعة ما يكفيها، وكتب في المحرم 738/هـ آب1337م لكل جهة بما هو مقرر عليها،[87] وكان قد كتب لتنكز وأمراء الشام في المحرم 737 هـ/ آب- أيلول 1336 بإقطاعات آل مهنا، وآل فضل[88]، لتصبح له ولعدد من أمراء الشام؛ لأنهم قطعوا الطريق على قافلة وأخذوا ما فيها، فلما ألزم آل مهنا بذلك اعتذروا بأن الذي فعل هذا عرب زبيد[89]، وهم ليس من عرب الطاعة.[90]

ويجدد السلطان تأكيده تقديم تنكز على سائر نواب السلطنة في الشام وتنفيذ طلباته جميعها، عندما قدم نائب الشام إلى القاهرة في جمادى الأولى 739هـ/كانون ثاني 1338م لحضور ولادة ابنته زوجة السلطان. فبعد أن حضر تنكز الاحتفال الذي أُقيم بتلك المناسبة، الذي سيتم تفصيله في تناول علاقة المصاهرة بينه وبين السلطان، وتم تجهيزه للسفر عائداً إلى دمشق وودع السلطان وسأله في عدد من الأمور منها إعفاء ككحن[91] من الخدمة، وأن ينعم عليه بسفر لؤلؤ الحلبي[92] إلى الشام ليستقر في شد[93] عداد الأغنام، وأن ينقل الأمير بيبرس الحاجب[94] من حلب إلى دمشق، وأن ينعم على قرمشي [95] بإمرة ويستقر حاجباً بدمشق عوضاً عن علاء الدين بن صبح[96]، فأجابه السلطان إلى ذلك كله، وكتب له تقليداً[97] بتفويض الحكم في الممالك الشامية جميعها بأسرها، وأن نوابها جميعها تكاتبه بأحوالها، وأن تكون مكاتبته: "أعز الله أنصار المقر الشريف"، بعد أن كانت: "أعز الله أنصار الجناب"، وأن يزاد في ألقابه: "الزاهدي العابدي العالمي كافل الإسلام أتابك الجيوش".[98]

وبذلك بلغ تنكز درجة رفيعة لدى السلطان الناصر محمد ليس فقط داخل الدولة المملوكية، بل تجاوزتها إلى القوى المجاورة، زيادة على ما سبقت الإشارة إليه مع ملك أرمينية الصغرى، خلال الحملة المملوكية على سيس، هناك شاهد آخر لعله أكثر تعبيراً، ففي غمرة الصراع على السلطة في بغداد ما بين القان موسى وعلي بادشاه من جهة، والوزير نجم الدين محمود بن علي بن شروان[99] ومؤيديه من جهة أخرى، إثر قدوم القان موسى وعلي بادشاه إلى بغداد ومصادرتهما لأهلها ومنهم الوزير نجم الدين المشار إليه، الذي كان تمكن في بغداد وكثر ماله. تواطأ نجم الدين ابن شروان وصحبه على قتل نائب بغداد الذي أرسله علي بادشاه، وخرجوا بأموالهم وحريمهم من بغداد، وكتبوا للأمير سيف الدين تنكز نائب الشام يستأذنونه، فبعث تنكز البريد إلى السلطان بخبرهم، فأجيب بإكرامهم وتجهيزهم إلى القاهرة، فحمل إليهم من الأثاث ما يليق بهم حتى قدموا عليه وسيرهم مكرمين ووصلوا إلى مصر في 7صفر738هـ/14 أيلول 1335م يحملون هدايا رفيعة للسلطان، وأنعم عليهم بإمرة طبلخانات في دمشق ومصر.[100]

وإذ يفهم من هذا الخبر أن السلطان الناصر محمد كان الملجأ والحكم لزعماء دولة المغول، المتصارعين على السلطة في بغداد، فقد كان الأمير تنكز نائب السلطنة في دمشق شريكه في ذلك السمو، ومستشاره الذي ظاهرياً على الأقل يأخذ رأيه، وبما أن السلطان أولى نائبه في دمشق هذه المكانة، فإن تنكز كان حريصاً على إبلاغ السلطان بأدق تفاصيل هذه المسألة وتنفيذ ما يأمر به بحرفيته، لما للأمر من حساسية بخصوص العلاقة مع دولة المغول في العراق وإيران.

وإن كانت العلاقة بين السلطان ونائبه في دمشق في أبهى صورها فيما يخص هذه المسألة التي تندرج ضمن العلاقات الخارجية للسلطنة، فإنها كانت على المستوى نفسه فيما يخص الشأن الداخلي، فعندما كتب تنكز للسلطان في شعبان 736هـ/آذار 1336م لكي يولي علم الدين محمد بن القطب[101] كتابة السر في دمشق، وشكره وبالغ في وصفه، استجاب السلطان وعينه في تلك الوظيفة[102]، ولم يحفل برأي شهاب الدين أحمد بن محيي الدين بن فضل الله[103]، الذي كان يتولى كتابة السر في مصر نيابة عن أبيه، واستنكر ذلك التعيين بحجة أن علم الدين بن القطب قبطي ولا يعرف صناعة الكتابة، لا بل أمر السلطان أن تكثر ألقاب علم الدين ويزاد في معلومه (أجره)، فأغلظ شهاب الدين القول للسلطان حتى ظن الأمراء أن السلطان سيقتله، وربما أنه كان سيفعل لولا أنه راعى حرمة أبيه.[104]

وفي سنة 738هـ/1337- 1338، تغير تنكز على علم الدين بن القطب لما بلغه عنه من أنه يأخذ البرطيل (الرشوة)[105]، وضربه ضرباً مبرحاً واحتاط على موجوده، وأمر أن لا يخرج من داره ولا يجتمع بأحد، وأقام على ذلك إلى أن أمسك تنكز[106]، ولم يعترض السلطان على ما فعله تنكز بابن القطب ولم يعاتبه، ولكن عندما حان وقت اعتقال تنكز، أمر السلطان الأمير بشتاك[107] الذي كلف باعتقاله أن يجد ابن القطب لمرشده إلى مال تنكز جميعه[108].

زيادة على ذلك، وفيما يخص الشأن الداخلي، نجد السلطان يأخذ رأي تنكز في مسألة عامة في مصر، ضج منها الناس، حتى لحق الأذى بكبار الأمراء المماليك المقربين للسلطان، وهي الشكوى من النشو، وهو كاتب نصراني اعتنق الإسلام سنة 731هـ/1331م، واتخذ لنفسه اسم شرف الدين عبد الوهاب، وعينه الناصر محمد مستوفيا[109]، وتدرج في المناصب فكان ظالماً ووصلت الشكوى إلى السلطان وهو لا يصدق[110] ولما اشتدت الشكوى منه أرسل السلطان الأمير قرمجي (قرمشي) الحاجب إلى دمشق، الذي كان قد عاد لتوه من مهمة في المدينة نفسها، ليستشير الأمير تنكز نائب الشام في أمر النشو وليكشف أخباره بالبلاد الشامية، فعاد قرمجي في 26 محرم 740هـ/4آب1339 بمكاتبات تنكز بالحط على النشو، وأن التجار وأرباب الأموال في خوف شديد من ظلمه، وأن الرأي فيه للسلطان، وبعد نصائح أخرى قدمت للسلطان، أمر بالقبض على النشو ومصادرة أمواله، التي كشف عن الكثير منها، ومن ثم أمر بقتله[111].

ومع أن النشو كان في مصر وتنكز في الشام، أرسل السلطان إلى نائب الشام يستشيره في أمره؛ لأن شخصاً مثل تنكز وفي موقعه ولتوالي زياراته لمصر لا بد أن تكون لديه صورة عن أفعال النشو، التي فوجئ السلطان بها، فأكد تنكز للسلطان ما سمع عن النشو، فتغير موقفه من ناظر خاصه، وجرى له بعد ذلك ما جرى!.

وبما أن تنكز قد حاز على هذه المنزلة عند السلطان، فمن المنتظر أن يحظى بتكريم سيده وبالإنعامات الجزيلة من الأموال والجواهر والأقمشة وكل ما يسبغ على المانح الجود، وعلى المتلقي الجدارة بالتكريم، وتتوافر جملة من الشواهد على تكريم السلطان لتنكز تكريماً طاول الإسراف.

فعندما قدم تنكز إلى القاهرة في 9 رجب 722هـ/3 آب 1322 م، أنعم عليه السلطان إنعامات جليلة بلغت نحو ثمانين ألف دينار، ورسم لسائر الأمراء بحمل تقادمهم (هداياهم) إليه، وأن من أحضر تقدمة يخلع على محضرها من الخزائن السلطانية، فحملت إليه تقادم جليلة، منها أربعون سلسلة ما بين ذهب وفضة، وحمل كريم الدين الكبير[112]، ناظر الخاص السلطاني حينئذ تقدمة بعشرة آلاف دينار، وعاد تنكز إلى دمشق بعد أن أقام في مصر خمسة أيام.[113]

وفي 10 محرم 725هـ/17 كانون أول 1324، قدم الأمير تنكز نائب الشام إلى مصر، وأقام عند السلطان أياماً وعاد إلى دمشق مكرماً.[114]

وفي 4 ربيع الآخر 727هـ/24 شباط 1326 وصل الأمير تنكز نائب الشام إلى القاهرة ومعه قليل من مماليكه باستدعاء من السلطان، وخرج إلى لقائه الأمير بكتمر الساقي[115]، وقدم به وأكرمه السلطان، وأنزله بدار بكتمر الساقي، وكان قدم الأمير بدر الدين مسعود بن الخطير،[116] أحد حجاب دمشق، فشكا منه وسأل أن يكون بديار مصر، فأنعم عليه بإمرة طبلخاناه، وأن يكون رفيقاً للأمير ألماس الحاجب [117]، وعاد تنكز إلى دمشق.[118]

ولما وصل تنكز إلى مصر لحضور عقد قران ابنته قطلوملك على الأمير أحمد بن بكتمر الساقي في 14 ذي الحجة 727هـ/30 تشرين أول 1327م، خلع عليه السلطان خلعة كاملة، صرف على القباء الفوقاني[119] منها مبلغ أربعة وخمسين ألف درهم.[120]

وفي المحرم 730هـ/ تشرين أول – تشرين ثاني 1329، وصل الأمير تنكز نائب الشام إلى مصر، فبالغ السلطان في إكرامه ورفع منزلته على عادته، ثم توجه إلى دمشق بعدما أنعم عليه السلطان بمائة ألف درهم، وكتب له على الأعمال الشامية بمائة ألف أخرى. [121]

وفي 19 جمادى الأولى 733هـ/5 شباط1333م، وصل الأمير تنكز نائب الشام إلى القاهرة، فأكرمه السلطان إكراماً زائداً على عادته، وأقام لديه عشرين يوماً وعاد إلى دمشق في 9 جمادى الآخرة/25 شباط من السنة نفسها.[122]

وتتجلى العلاقة في أوضح صورها ما بين السلطان وتنكز من خلال الروابط الشخصية بينهما، ففي منتصف جمادى الآخرة 721/أوائل تموز 1321، ولد للسلطان ولد من زوجته خوند طغاي أسماه آنوك، وكانت طغاي هذه جارية تركية اشتراها تنكز نائب الشام من دمشق بتسعين ألف درهم فبعثها إلى السلطان فنفق ذلك على سيدها، وحضر إلى السلطان، فأنعم عليه بألفي دينار، وكتب له مسموحاً[123] بألفي دينار، ونالت الخاتون طغاي الحظوة عند السلطان، وكانت بارعة الجمال، فعمل السلطان عند ولادتها احتفالاً عظيماً، وأنعم عليها بالسفر إلى الحجاز لأداء الحج، وبعث الأمير تنكز أيضاً يستأذن في الحج، فأذن له.[124]

ولما بلغ الأمير آنوك بن الناصر محمد الحادية عشرة، وعزم أبوه على تزويجه، كتب السلطان في شهر ربيع الأول 732هـ/كانون أول 1331م إلى الأمير تنكز نائب الشام ليحضر هو ونائب حماة الاحتفال بزواج الأمير، ووصل تنكز القاهرة في أول شعبان 732هـ/أواخر أيار 1332م، ولما فرغ السلطان من الاحتفال خلع على الأمراء

جميعها، وأرباب الوظائف وأكابر الأمراء، وخلع على الأمير تنكز نائب الشام، وجهز صحبته الخلع لأمراء الشام.[125]

وفي مناسبة مماثلة بعد خمس سنين، يبلغ إكرام السلطان لتنكز حداً لا نظير له، وذلك عندما كتب السلطان إلى تنكز في صفر 737هـ/أيلول 1336 م، أن يأتي بأولاده وأهله إلى مصر لحضور حفل زواج الأمير أبي بكر بن السلطان. وقد احتفل السلطان لقدومه احتفالاً تجاوز المألوف، وكانت عادته أن يصرف عليه إذا قدم مبلغ خمسين ألف دينار، فأمر أن يكون هذه السنة سبعين ألف دينار، ثم خرج السلطان لملاقاته ومعه أولاده، وأرسل الحاجب إلى تنكز ليخبره بألا يترجل عن فرسه حتى يرسم له، وتقدم أولاد السلطان إلى تنكز أولاً، فلما قرب تنكز نزل السلطان عن فرسه إلى الأرض على حين غِرّة من الأمراء، فألقوا أنفسهم جميعاً عن خيولهم، وألقى تنكز نفسه إلى الأرض، وعدا في مشيته جهد قدرته وهو يقبل الأرض ويقوم إلى أن قبل رجلي السلطان وقد دهش فقال له السلطان: "اركب فرسك "وركب السلطان والأمراء وسايره وهو يحادثه، فلم يسمع من ملك أنه فعل مع مملوكه من التعظيم ما فعله السلطان في هذا اليوم مع الأمير تنكز[126] .

ويزداد التقارب بين السلطان وتنكز أكثر فأكثر، وتتوثق العلاقة بينهما برباط المصاهرة، وذلك عندما تزوج السلطان ابنة تنكز التي أنجبت له في 2 شهر ربيع الأول 738هـ/ 29 أيلول 1337م ابنه صالح الذي تولى الملك سنة 752هـ/1351 م.[127] وقد جهز السلطان زوجته بمائة وأربعين ألف دينار كما ذكر المقريزي جعلها ابن تغري بردي مائتين وأربعين ألفاً، وأقيم الاحتفال لمدة أسبوع حضره نساء الأمراء وما منهن إلا من عين لها السلطان تعبية [128] قماش على قدر رتبة زوجها، وحتى مغنيات القاهرة كان نصيب الواحدة منهن عشرة آلاف درهم عدا التفاصيل[129] الحرير والمقانع[130] والخلع، أما الأمير تنكز فقدم لابنته مقنعة وطرحة بسبعة آلاف دينار، وبلغ مصروف ذلك الاحتفال خمسمائة ألف دينار، وصفه المؤرخون بأنه "كان شيئاً لم يسمع بمثله في الدولة التركية".[131]

وفي السنة التالية، ولما حضر تنكز إلى القاهرة في 11جمادى الأولى 739هـ/27 تشرين ثاني 1338، لقرب ولادة ابنته زوجة السلطان لقي إكراماً وتعظيماً من الناصر محمد فاق كل ما سبقت الإشارة إليه، فقد كتب السلطان له يستدعيه ومعه أهله وأولاده لحضور الاحتفال بولادة ابنته مولودها الثاني، وأمر السلطان النشو ليتولى تدبير الاحتفال وما تحتاجه النُّفساء بما يزيد على ثلاثمائة ألف دينار، ولما قدم البريد بتوجه الأمير تنكز من غزة إلى القاهرة، بعث السلطان الأمير قوصون[132] إلى لقائه ومعه المطبخ السلطاني، لإعداد الموائد اللائقة بمقام تنكز، وركب السلطان إلى قصوره بسرياقوس[133]، ومعه أولاده. ونزل قوصون السعيدية[134]، وهيأ الأسمطة (موائد الطعام) الجليلة وتلقى تنكز، وركب إلى الخيمة التي نصبها السلطان له، فلما انقضت المأدبة ركب تنكز فتلقاه أولاً أولاد السلطان فترجل لهم، ثم سار وهم معه فتلقاه السلطان وأكرمه غاية الإكرام، وفي اليوم التالي صعد السلطان قلعة القاهرة، وخلع على تنكز وعلى أولاده وأمّرهم.[135]

وقد أمر السلطان بإسكان تنكز في داره بخط (ضاحية) الكافوري[136] في القاهرة على عادته، وخلع عليه خلعة الاستمرار على نيابة دمشق، وبعد أيام تكلم في أمر الطنبغا الصالحي نائب حلب، فعزله السلطان عن نيابة حلب وولاّه نيابة غزة[137]، وبعد ذلك جهز تنكز تقدمته للسلطان وللأمراء، وكانت تقدمة عظيمة تجل عن الوصف: منها من الجواهر ما قيمته ثلاثون ألف دينار، ومن الزركش[138] عشرون ألف دينار، ومن أواني البلور وتعابي القماش والخيل والسروج والجمال البخاتي (الخراسانية) ما قيمته مائتان وعشرون ألف دينار، فلما فرغ من ذلك أدخله السلطان إلى الدور حتى رأى ابنته وقبلت يده، ثم أخرج السلطان إليه بناته جميعهن وأمرهن بتقبيل يده وهو يقول لهن واحدة بعد واحدة "بوسي يد عمك"، ثم عيّن اثنتين منهن لولدي تنكز، فقبل تنكز الأرض وخرج السلطان يحادثه. وأمر السلطان النشو بتجهيز تنكز إلى الصعيد للصيد، ثم ركب وتوجه إلى الصعيد وتنكز معه، فكان من إكرامه له في هذه السفرة ما لم يُعهد من ملك مثله. فلما عاد السلطان أمر النشو بتجهيز كلفة عقد ابني تنكز على ابنتيه، وكلفة سفر تنكز إلى الشام، فأخذ النشو أموال التجار وغيرهم، وجمع أربعة عشر ألف دينار، حمل منها برسم المهر أربعة آلاف دينار، وجهز تنكز بباقي عشر ألف دينار، وعقد لولدي تنكز على ابنتي السلطان ببيت الأمير قوصون كونه زوج أختهما بحضرة القضاة والأمراء.[139]

وقد ولدت ابنة تنكز بنتاً، فسجد أبوها شكراً لله، وخاطب السلطان قائلاً: "والله! يا خوند! كنت أتمنى أن تكون المولودة بنتاً فإنها لو وضعت ذكراً كنت أخشى من كمال السعادة، فإن السلطان تصدق علي بما غمرني به من السعادة، فخشيت من كمالها".[140]

ولما حان وقت عودة تنكز إلى دمشق أخذ السلطان في تجهيزه مع النشو، وأمره أن يضاعف ما جرت به عادته من الخيل والتعابي، ورتب السلطان ذلك بنفسه، وبلغت قيمة ذلك ما بين مائة وعشرين ألف دينار، ومائة وخمسين ألفاً.[141] وكان تنكز قد أقام في مصر هذه المرة مدة شهرين، وراتبه السلطاني في كل يوم أربعة آلاف درهم.[142]

وتبدو هذه العطايا عادية في ظل ما بلغته العلاقة بين السلطان وتنكز، علماً أنها كانت على هذه الوتيرة قبل ذلك بكثير، يقول صلاح الدين الصفدي: "وقال لي شرف الدين النشو: إن إنعامه الذي خصه من السلطان في سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة بلغ ألف ألف درهم وخمسين ألف درهم خارجاً عن إنعامه من الخيل والسروج، وماله على الشام من العين والغلة والغنم، ثم رأيت أوراقاً بيده فيها كلفته وهي: ثلاث وعشرون قائمة بما يحتاج إليه في أمره من جملة ذلك طبلا باز ذهباً صرفاً زنتهما ألف مثقال، ثم توجه بعد ذلك أربع مرات فيما أظن وفي كل مرة يتضاعف له الإنعام، وزاد تمكنه وهيبته إلى أن كان أمراء مصر من الخاصكية يخافونه ..."[143]

زيادة على ما تقدم، ومن باب تكريم الناصر محمد لتنكز، نجده يقبل شفاعته في عدة مناسبات اقتضت وساطته لدى السلطان، ففي 10شهر ربيع الآخر 732هـ/10 كانون أول 1331، قدم إلى القاهرة الملك الأفضل ناصر الدين محمد[144] بن الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل صاحب حماة بعد وفاة أبيه بها، وهو شاب في العشرين من العمر فأكرمه السلطان وأقبل عليه، وكان والده لما توفي أخفى أهله موته، وسارت أم الأفضل إلى دمشق وحضرت عند الأمير تنكز نائب الشام، وقدمت له هدية من الجواهر، متوسلة إليه في إقامة ولدها الأفضل مكان أبيه، فقبل تنكز

هديتها، وأبلغ السلطان بوفاة الملك المؤيد متضرعاً إقامة ابنه مكانه، فلما بلغ ذلك الأمر السلطان، أسف لموت المؤيد، وكتب إلى تنكز بالموافقة على طلبه، وأن يرسل الأفضل إلى مصر، فأرسله تنكز إلى السلطان، فأنعم عليه بمملكة أبيه.(145)

ولما أخذ النشو يدبر سنة 734هـ/1333م على شاد الدواوين ابن هلال الدولة (146)، واتهمه بأنه أخفى من مال السلطان، وأهمل في المحافظة على أموره، وأنه ضاع بسببه كثير من مال السلطان، عُزل ابن هلال الدولة من وظيفته، ورتبت عليه أوراق بما أهمله وفرط فيه، وطلب وصودر هو وأعوانه وجميعها(147)، وعندما وصل الأمير تنكز نائب الشام غزة في 28 جمادى الآخرة 734هـ/5 آذار1334، تقدم مملوكه إلى القاهرة يستأذن في دخوله كما هي عادته، رسم له بسرعة الحضور، وألا يتحدث في شيء من أمر ابن هلال الدولة فإن السلطان قد تغير عليه.(148) فقدم تنكز إلى القاهرة، وعاد إلى دمشق بعد إقامة قصيرة في 3رجب/9آذار، بعد أن أنعم عليه السلطان بمائة ألف درهم(149)، و لم يتحدث بشيء في أمر ابن هلال الدولة نزولاً عند رغبة السلطان، الذي يبدو أنه كان حريصاً على ألاّ يؤذي مشاعره فيما لو تشفع في ابن هلال الدولة، و لم يقبل شفاعته.

وبعد سنة حينما قدم تنكز إلى القاهرة في 11رجب 735هـ/3 آذار1335، وهو مقدمه العاشر، سعى لدى السلطان في خلاص ابن هلال الدولة، وساعده الأمير قوصون، ولبى السلطان هذه المرة شفاعته، وتمّ الإفراج عن ابن هلال الدولة.(150)

ولما أُعيد اعتقال ابن هلال الدولة مع ابن المحسني(151) في 13رجب 73هـ/ 2شباط 133م في الإسكندرية، بقيا معتقلين حتى تمّ الإفراج عنهما في 2 شهر رمضان/2 نيسان بشفاعة الأمير تنكز نائب الشام، فخلع السلطان عليهما، وأمر أن يقيم ابن المحسني مع أبيه في طرابلس، وأن يقيم ابن هلال الدولة في دمشق، وتوجه كل منهما إلى مقر إقامته الجديد.(152)

وفي سنة 739هـ/1338م استدعي الملك الأفضل محمد بن المؤيد إسماعيل صاحب حماة إلى القاهرة لكثرة شكاية الناس من شغفه باللهو، وأخذ أموال الرعية والتجار، فتوجه أولاً إلى تنكز نائب الشام، وقدم له هدية ليشفع فيه عند السلطان، وكتب له تنكز كتاب شفاعة للسلطان، وشرط عليه أن يكف عن أفعاله، ولما توجه إلى السلطان سبقه كتاب تنكز، وقدم للسلطان وحاشيته هدية تقارب خمسمائة ألف درهم فأقبل السلطان عليه و لم يكلمه، ثم عاد إلى بلده بعد أن وصّاه السلطان بحضرة القضاة وعدد ذنوبه وأخبره أنه قبل فيه شفاعة نائب الشام الأمير تنكز.(153)

ويتضح مما تقدم أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون ومنذ أن أصبح تنكز من مماليكه عمد إلى ترقيته، ومن ثم تعيينه لنيابة السلطنة في دمشق، وتقديمه على سائر نواب السلطنة في بلاد الشام، كما بالغ في إكرامه واحترامه، وأصهر إليه، وقبل شفاعته، فماذا قدم تنكز للسلطان مقابل ذلك؟ إن الأخبار المتوافرة حول ذلك تبين أن تنكز كان حريصاً على تأدية واجباته، وتنفيذ أوامر السلطان كما يجب، وإذا ما بادر إلى فعل شيء من تلقاء نفسه، يضمن أن يقع في نفس السلطان موقع الرّضا، فلما أجري الروك(154) في بلاد الشام سنة 713هـ/1313م، وكلف بإجرائه الأمير علم الدين سنجر الجاولي نائب غزة، توجه الجاولي إلى دمشق، وأقام مع الأمير تنكز إلى أن فرغ من

مهمته[155]، ولعل إنجاز الجاولي لمهمته وهو في كنف تنكز، الذي كان لا يزال في بداية عمله في نيابة دمشق، كان فرصة يظهر من خلالها نائب دمشق ولاءه للسلطان بتوفير كل ما يلزم لإنجاح مقاصده.

وفي مطلع سنة 715هـ/ربيع 1315م قاد تنكز قوات الشام بأمر السلطان وهاجم ملطية،[156] لإلقاء القبض على قراسنقر المنصوري[157]، الذي فر إلى المغول، واستسلمت المدينة للقوات المملوكية، التي أسرت ونهبت ثم انسحبت، وعادت المدينة بعد ذلك لسيطرة المغول، وبقي قراسنقر هارباً،[158] ورغم أن الهدف الأساسي للحملة هو القبض على قراسنقر المنصوري لم يتحقق، ورغم أن السبب الذي ذكره أبو الفداء وهو: " أن المسلمين بها كانوا اختلطوا بالنصارى حتى أنهم زوجوا الرجل النصراني بالمسلمة"[159]، يبدو تسويغاً غير مقنع كون المدينة خارج سيادة المماليك، فإن دخول العساكر المملوكية تلك المدينة كانت ضربة للمغول سُجلت لصالح تنكز.

ويبدو أن السلطان كان راضياً بما حققه تنكز في ملطية بدليل استمراره في نيابة دمشق، لا بل وتكليفه عندما عزم زيارة القدس في جمادى الأولى 716هـ/تموز آب 1316م بأن يلقاه بالإقامات[160] أثناء زيارته، فزار السلطان القدس، ودخل الحرم، وعاد بعد شهر من خروجه.[161]

ولما قدم الملك الصالح صلاح الدين يوسف الأيوبي[162]، صاحب حصن كيفا[163] على الأمير تنكز في دمشق في أواخر شوال سنة 727هـ/ أوائل أيلول1327م، بعد أن زار السلطان في القاهرة، حيث أكرمه وأنعم عليه، بالغ تنكز في الإحسان إليه، وعاد إلى بلده، ولما عاد ثار عليه أخوه الملك العادل محي الدين[164] وقتله، وكان الملك الصالح صلاح الدين قد انتزع حصن كيفا من أعمامه وأخوته بالقوة، ولما تمكن منع الخراج عن القان (الإلخان) بوسعيد[165]، وتعرض لرسل الأمير تنكز نائب الشام وإلى بعض التجار، فكتب إليه يهدده بأنه سيقتله وسط حصنه، فخاف وأجاب بالاعتذار، وأنه في خدمة السلطان ونائبه؛ أي الأمير تنكز، وأنه يمتثل أوامره، وأرسل هدية إلى نائب الشام، فسُرَّ السلطان بذلك، وأكد تنكز في مهاداته، فلما قدم الأمير أيتمش المحمدي، وهو الذي ينتدبه السلطان لمهماته، على الصالح صلاح الدين يوسف، تلقاه وقدم له هدية حسنة، وأبلغه أنه نائب السلطان في الحصن ويمتثل أوامره، وكتب إلى تنكز بذلك فأبلغ السلطان، فازداد رغبة فيه، وما زال تنكز يستميله حتى قدم إلى مصر، وقد استناب الصالح أخاه الملك العادل محي الدين على الحصن مدة غيبته فطمع محي الدين في الحصن وقتل الصالح بعد رجوعه من مصر، وكتب محي الدين للمغول أنه لم يقتله إلا لخروجه عن طاعتهم وبعث إليهم بالخراج، فأجابوه بالشكر والثناء واستمراره على نيابة الحصن، كما كتب محي الدين إلى تنكز نائب الشام بأنه لم يقتله إلا لما ثبت عليه من شرب الخمر والفسق وقتل الأنفس واستباحة الأموال والتلفظ بالكفر غير مرة، وأرسل إليه هدية وترفق إليه في كتبه، وأنه مملوك السلطان ونائبه، فأبلغ تنكز السلطان بذلك، فأجابه بقبول عذره واستجلاب خاطره، ففعل ما أشار به السلطان.[166]

وإذا كان صاحب حصن كيفا الجديد، العادل محي الدين، أزمع اللعب على الحبلين في وقت واحد؛ حبل المغول الألخانيين،[167] وحبل المماليك بإظهاره الولاء والتبعية لكل منهما، فإنهما حافظا على حسن الجوار. وقدم دمرداش ابن جوبان بن تلك[168]، وجوبان بن تلك كان هو المتحكم ببوسعيد زعيم الألخانية، قدم على دمشق يوم 25

صفر 728هـ/10 كانون أول 1327م، وركب الأمير إلى تنكز، وأنزله بالميدان، وقام له بما يجب وجهزه إلى مصر والتقى السلطان، وقد أكرمه السلطان في بداية الأمر، ولكنه لما علم بتغير بوسعيد على والده وأنه جاء إلى مصر هارباً، وأرسل بوسعيد في طلبه، ورأى الناصر محمد أن من المصلحة لإرساء الصلح مع بوسعيد أن يمسك دمرداش، أمر باعتقاله، ومن ثم بإعدامه بحضور رسول بوسعيد.[169]

ويندرج في سياق المحافظة على الهدوء مع الألخانيين، رغم انحلال قوتهم واقتراب انهيار دولتهم، والتعاطي باللين مع الزعامات المحلية الحدودية متقلبة الولاء، ما كان من أمر مهنا بن عيسى[170] زعيم آل فضل، الذي عاد في ذي الحجة 734هـ/أيلول 1334 من العراق مزمعاً القدوم على السلطان الناصر محمد، فلم يشعر الأمير تنكز نائب الشام إلاّ ومهنا قد قدم عليه هو والملك الأفضل محمد صاحب حماة، فركب إلى لقائه وأنزله بالقصر الأبلق،[171] ولما علم السلطان بقدومه كاد يطير فرحاً، وبعد ذلك أرسله تنكز هو والملك الأفضل إلى السلطان، فاستقبله وأنعم عليه.[172]

ولما وصل الخبر إلى القاهرة في شهر ربيع الأول 739هـ/أيلول–تشرين أول 1338م بأن ابن دلغادر[173] استولى على طرندة،[174] من بلاد الروم وأخذ ما فيها من الأموال، وأن الأمير تنكز بعث إليها الأمير علاء الدين علي بن صبح، سُرّ السلطان الناصر محمد بذلك، وبعث بتشريف لابن دلغادر وشكره وأثنى عليه.[175]

ومثلما كان تنكز ينفذ ما من شأنه أن يرضي السلطان في التعامل مع القوى الخارجية، والزعامات المحلية المتنفذة، فإنه كان كذلك يحرص على رضا السلطان فيما يخص الشأن الداخلي؛ إما بتكليف من السلطان أو بمبادرة منه شخصياً، ففي سنة 727هـ/1327م كتب إليه السلطان ليجمع فقهاء الشام وليعمل بأوقافها كلها بمقتضى شروط واقفيها، فنفذ تنكز أمر السلطان، ونظر في أوقاف الشام، وأمر بعمارة ما يحتاج إلى عمارة، ومنع الجوامك (الرواتب) كلها أن يصرف منها لأحد حتى تفرغ عمارتها.[176]

وفي السنة نفسها 727هـ/1327م وصل إلى ميناء بيروت تجار إفرنج بمائة وأربعين من أسرى المسلمين، وقد اشتروهم من الجزائر فاشتراهم الأمير تنكز، وزاد التجار في كل أسير مائة وعشرين درهماً على ما اشتراه به وكسا تنكز الجميع، وزودهم وأرسلهم إلى مصر فسر المسلمون بقدومهم.[177]

وعندما وقع اضطراب في عيار الذهب في دمشق في شهر رجب سنة 730هـ/نيسان–أيار 1330م، وتغير الدينار ونقص، وخسر الناس كثيراً جرّاء ذلك، صادر الأمير تنكز أهل دار الضرب، وأخذ منهم خمسمائة ألف درهم، وتقرر سعر الدينار من تسعة عشر درهماً إلى واحد وعشرين درهماً، وأن يكون صرف الدينار الجديد بخمسة وعشرين درهماً.[178]

ولعل تدخل تنكز لإصلاح وضع الدينار بدمشق ذو علاقة بإرسال يوسف الكيماوي إلى السلطان في مصر، ففي 17 شهر رمضان 730هـ/5 تموز 1330م وصل يوسف الكيماوي إلى مصر، وكان هذا الرجل نصرانياً من أهل الكرك فأسلم وتوجه إلى دمشق بعدما خدع بمدينة صفد الأمير بهادر التقوي[179]، وأتلف له الكثير من المال، فسجنه مدة ثم أفرج عنه، فاتصل يوسف الكيماوي بالأمير تنكز نائب الشام، وقصد خديعته فلم ينجح، وأمر والي

دمشق بشنقه فصاح وقال: "أنا جئت للسلطان، حتى أملأ خزائنه ذهباً وفضة"، فأرسله تنكز مع بعض ثقاته إلى السلطان، وكتب يخبره بخبره وحذر منه، ولكنه نجح في خداع السلطان وبعض رجاله فترة، ولما ظهر كذبه ضيق عليه، وأمر بسجنه وفرّ من السجن، ثم اعتقل ثانية، وضرب ضرباً شديداً، وسجن ومات في 25 ذي القعدة 731هـ/30 آب 1331م.[180]

وفي سياق حرص تنكز على مصالح السلطان وأمواله، ما أشار به على السلطان عندما قدم القاهرة في 10رجب 735هـ/7 آذار 1335م، فأبلغه السلطان عن همة النشو ولؤلؤ في تحصيل الأموال التي كانت مهملة ضائعة يرتشي عليها، وذكر له تنكز ما تجدد من المظالم وحسّن له طلب ابن التركماني[181] لضبط ما عساه يخفي عن السلطان من الأموال التي تؤخذ وحط من قدر لؤلؤ.[182]

ولما قدم ابن التركماني إلى مصر في 5 شهر رمضان 735 هـ/29 نيسان 1335م، لم يُقْبل السلطان عليه، وزيادة على ما أشار به تنكز سعى النشو عليه عند السلطان وذكر أنه جمع أموالاً كثيرة، وأن متاجره بطرابلس تزيد على مائة ألف دينار، وأنه أخذ مائتين وستين ألف دينار من مال السلطان، فنـزل ابن التركماني ولزم بيته.[183]

ولكن رغم حرص تنكز على نصح السلطان، والظهور أو التظاهر أمامه بمظهر المخلص الأمين، ورغم تبجيل السلطان له والمبالغة في تكريمه، فإن ما حصل لاحقاً، والمصير الذي انتهى إليه تنكز يوحي بأن السلطان ونائبه الأثير في دمشق كانا يفترقان في الباطن، في السنوات الأخيرة على الأقل، ويتقنع كل منهما بقناع حان وقت سقوطه عن وجه كل منهما ليكشف سمات رجال هذا العصر الحقيقية من خوف وكره، وكان حريق دمشق الذي تم على مرحلتين الأولى في 26 شوال 740هـ/26 نيسان 1340م، والثانية في 1ذي القعدة/30 نيسان، هو الحادثة التي أسقطت الأقنعة عن الوجوه، فانكشفت على حقيقتها، فقد شبّ الحريق الأول شرقي الجامع الأموي واحترقت إحدى قبابه وسوق اللبادين، وسوق الوراقين، ودار الخشب وخسر الناس فيه أموالاً وأملاكاً كثيرة، واشتعل الحريق الثاني في سوق القواسين، وسوق الخيل وبعض المدارس وبعض أملاك الأيتام، واستمر يومين، واحترق فيه خمسة وثلاثين ألف قوس وخسر التجار ما مقداره مليون وستمائة ألف دينار، وخربت أماكن كثيرة.[184]

اتهم عدد من الكتاب النصارى بالحريق، وأجرى تنكز تحقيقاً معهم واتضح أن عدداً من كبار النصارى اجتمعوا وجمعوا مبلغاً كبيراً من المال ودفعوه إلى راهبين حضرا من بلاد الروم يحسنان صناعة النفط، أحدهما يدعى ملاتي والثاني يدعى عازر، فصنعاه ووضعاه في شقوق الدكاكين وكانا في زي المسلمين وهربا إلى قبرص، أما بقية المتهمين فاعترفوا بفعلهم وكتب محضر في ذلك في 20 ذي القعدة /19أيار وأرسل إلى السلطان.[185]

بعد ذلك أمر تنكز بتسمير[186] أربعة ممن اعترفوا على الجمال وداروا بهم مدينة دمشق، ثم أُحرقوا بالنار كما فعلوا بالمسلمين وفقاً للشجاعي،[187] أما المقريزي فذكر أنهم أحد عشر شخصاً، وعدّد أسماءهم، وقال سُمّروا يوم 22 ذي القعدة/21 أيار، ولما سمروا وسطوا[188] بعد يومين،[189] كما أن تنكز نظر فيما احترق من أملاك المسلمين بدمشق وما يقوم بعمارتها فرمى بذلك على باقي النصارى بدمشق، واستخلص منهم تسعين ألف دينار بالقوة، وأمر أن تصرف في عمارة ما احترق من الأملاك، وابتدأ بعمارة الجامع الأموي فكان يشرف على ذلك بنفسه ويجلس من أول النهار إلى العشاء في غالب الأيام.[190]

أبلغ تنكز السلطان بأمر الحريق وبما فعل مع النصارى وبما قرر عليهم، فرد السلطان عليه منكراً فعلـه؛ لأن في ذلك إغراء لأهل القسطنطينية بمن يرد إليهم من التجار المسلمين وقتلهم، وأمره بإرسال الأموال التي استخلصها، وأن يتم ترميم المسجد من أوقافه وكل من له ملك يعمره من ماله، فلم يرسل تنكز شيئاً من المال إلى السلطان واستمر في أعمال الترميم.(191)

في هذه الفترة الحرجة في دمشق، التي حصل فيها أيضاً ارتفاع في الأسعار وانحباس في الأمطار، كتب السلطان إلى تنكز بأنه سيرسل إليه ابنتيه اللتين عقد لولدي تنكز عليهما ليجهزهما ويزوجهما ولديه، وأنهما ستكونان بصحبة الأمير بشتاك، وأنه أمر سائر الأمراء والنواب لإرسال الشمع والتقادم (الهدايا) إلى تنكز. فلما بلغ تنكز عزم بشتاك التوجه إليه وصحبته ثلاثمائة وخمسين من مماليكه بأسلحتهم وكامل عدتهم الحربية، أنكر ذلك، وخشي أن يكون قدومه للقبض عليه.(192)

وفي غمرة ذلك تشاور تنكز مع حاجبه قرمشي ومملوكيه: حنغية وطغية (193)، وأطلعهم على ما في نفسه من تخوّف من تغير السلطان عليه، وأنه يقصد مسكه، واستقر الرأي أن يكتب للسلطان بالاعتذار عن حضور بشتاك وإتمام الزواج في هذا الوقت بسبب الخراب الذي لحق بدمشق جرّاء الحريق، وأنه منشغل بعمارة المسجد والجهات الأخرى التي تضررت من الحريق، وأن المبلغ الذي أخذه من النصارى صرفه في عمارة الجامع، وأن الناس يعانون من الغلاء، وأن الوقت ليس مناسباً للعرس والفرح، وتقرر أن يذهب قرمشي إلى السلطان بهذا الرد، وأوصاه تنكز أن يستعطف السلطان في تأخير العُرس، وأن يكشف حاله عنده، ويأتيه بالأخبار فتوجه قرمشي للسلطان فوجده قد تغير تماماً على تنكز.(194)

غضب السلطان على قرمشي من الرد الذي يحمله، فأخذ يحدث السلطان بما يرضيه فاستماله السلطان، ووعده بأن يوليه حجوبية مصر، وأن يكون له عيناً على تنكز، وباح قرمشي بكل ما يعرف عن نائب الشام، وبمخاوفه من قدوم بشتاك، فكتب السلطان لتنكز منكراً عليه موقفه من العرس، وأن لا بد من إقامته، وأوصى قرمشي أن يوافيه بما يستجد، ويبلغ تنكز بضرورة سفر بشتاك إليه، وعاد قرمشي إلى دمشق، وأبلغ تنكز بموقف السلطان.(195)

ورد تنكز من جديد على السلطان بالاعتذار عن حضور بشتاك وإتمام العرس بالحجج نفسها من جدب البلاد وغلاء الأسعار وحريق دمشق، وعدم مواءمة الوقت للفرح، وأن حضور الأمراء بحاجة إلى كلفة كبيرة، واقترح أن يرسل ولديه إلى السلطان ليكون الزواج في مصر(196)، وأرسل الجواب مع أحد مماليكه، وأمره بكشف حال السلطان معه وسرعة الحضور بالخبر، وعاد يجتمع مع قرمشي وحنغية وطغية، فيتشاور معهم في حاله مع السلطان، ويطلعهم على مكائده وتصرفه مع مماليكه، بحيث إذا كبر عنده أحدهم ضجر منه، وشوه صورته فأشار عليه حنغية وطغية بإرسال بعض متاعه إلى قلعة جعبر، وأن يكون فيها سلاح وعدد وذهب يجده إذا احتاجه، وأن يشيع بين الأمراء أنه متوجه للصيد في تلك الناحية، ويجهز نفسه حتى يعود المملوك الذي أرسله إلى السلطان بالجواب.(197)

ولعل أبرز ما أشار به حنغية وطغية على تنكز هو إذا كان جواب السلطان بما يكره، فليخرج بمن يوافقه إلى مرج دمشق، ويقتل قطلوبغا الفخري ليأمن شره، ومن ثم يخرج إلى قلعة جعبر أو إلى أي مكان يريد، وأبلغاه أن يحذر من

قرمشي ولا يبوح له بأسراره؛ لأنهما عرفا من أحد مماليك قطلوبغا الفخري أن قرمشي يتردد على سيده على غير المألوف، وكان قرمشي قد أطلع قطلوبغا الفخري بعد عودته من عند السلطان على مهمته الجديدة وهي التجسس على تنكز، وأن يتعاون معه في سبيل مصلحة السلطان، ولكن تنكز لم يصدقهما ورماهما ببغض قرمشي لإبعاده عنه.[198]

ولما عاد مملوك تنكز من عند السلطان أبلغه بتغير السلطان عليه، وأبلغه أن هناك إشاعة أخرى سرت مفادها أن السلطان يريد إمساك بشتاك، ولا يقدر على ذلك في مصر، وسيرسله إلى تنكز ليمسكه في دمشق ويعتقله بها، وكان ذلك مكيدة من السلطان أشاعها عند زوجته ابنة تنكز لعلمه أنها ستشيعها، وأمر المملوك بالرجوع إلى دمشق، وأن الجواب سيرد إلى تنكز مع طاجار الدوادار، وذلك على غير العادة إذ كانت أجوبة السلطان لتنكز تعود في الحال مع مراسيله إلى مصر.[199]

وتوجه طاجار إلى دمشق يحمل رد السلطان إلى تنكز بأنه أجاب طلبه على أن يحضر هو وولداه لصحبة طاجار بسرعة إلى مصر لإتمام الزواج، فطلب تنكز من طاجار الذهاب، وأن يمهله حتى يجهز نفسه، ويأخذ معه هدية تليق ببنتي السلطان. ولكن طاجار أصر على اصطحابهم معه فضجر منه تنكز وطلب منه أن يفصح إليه إن كان جاء لمسكه، وأغلظ له القول حتى أنه قال: إن ليس للسلطان اهتمام إلا بالزواج واللعب متغافلاً عن مصالح الناس وما هم فيه من غلاء وبلاء أثر حريق دمشق، وافترقا غاضبين، وفي اليوم التالي أخذ طاجار الرد والتقى قرمشي الذي أوصاه أن يبلغ السلطان باستدراك أمر تنكز؛ لأنه عازم على الخروج، وأنه اتفق مع كبار الأمراء، وأعطاهم الأموال والخيول وأن لديه خمسمائة هجين في المرج، وأنه لا ينوي خيراً.[200]

وتذكر كتب التراجم مهمة طاجار على نحو مختلف، وذلك عندما اعتذر تنكز عن مجيء بشتاك تذرعاً بالغلاء وجدب البلاد، أرسل السلطان إليه الأمير طاجار ليبلغه إنه ما عاد يطلبه إلى مصر ولا يرسل إليه أميراً كبيراً حتى لا يتوهم فاقترح تنكز أن يتوجه معه بولديه إلى السلطان، وردّ عليه طاجار بأن السلطان سيرده، وأنه أي طاجار سيكفيه هذه المهمة ويعود إليه بتقليد جديد وإنعام جديد بعد ثمانية أيام.[201]

عاد طاجار إلى مصر، ووصل إليها في 19 ذي الحجة 740هـ/13حزيران 1340م، وأبلغ السلطان بما سمع من تنكز وأنه عازم على الخروج من دمشق وزاد في المقال، على حد قول الشجاعي،[202] وكأنه حرّف الكلام، كما قال الصفدي[203]، "وكان قد ثقل عليه أمر تنكز وأخذ في زواله ... فأغرى السلطان به"، كما ذكر المقريزي[204].

صُعق السلطان بما ذكر طاجار واستدعى أمراء المشورة، [205] وأخبرهم أن تنكز خرج عن الطاعة، وقرر معهم تحليف العسكر وإرسال حملة إليه. فأرسلت إليه حملة فيها، سبعة من مقدمي الألوف وما بين خمسة وعشرين إلى ثلاثين أمير طبلخاناة، وما بين خمسة وثلاثين إلى خمسين من مقدمي أجناد الحلقة، وعشرين من أمراء العشرات وأربعمائة من المماليك السلطانية. [206] وقدر الصفدي عديد تلك القوة ما بين خمسة آلاف وعشرة آلاف مقدمهم الأمير سيف الدين بشتاك، كما أرسل السلطان إلى الأمير طشتمر[207]، نائب صفد، وأمره بالتوجه إلى دمشق وكلفه بالقبض على تنكز.[208]

ولكي يحكم السلطان خطته أمر بسد الطرق كل المحتمل أن يسلكها تنكز، واتفق اليوم الذي عقد به المجلس للبت في أمر تنكز، وهو يوم 20 ذي الحجة 740هـ/14حزيران 1340، أن قدم على السلطان الأمير موسى بن مهنا أمير العرب[209]، وقرر معه القبض على تنكز، وكتب إلى العربان بأخذ الطرقات عليه من كل جهة، وأرسل إلى الطنبغا الصالحي نائب غزة، وإلى طشتمر نائب صفد وإلى أمراء دمشق بملطفات[210] كثيرة، وأخرج موسى بن مهنا لتجهيز العربان في حمص، واهتم بأمر تنكز اهتماماً كبيراً، وكثر قلقه وتنغص عيشه.[211]

وكتب السلطان أيضاً إلى حاجب دمشق سيف الدين أَلْلمش، [212] وإلى قطلوبغا الفخري وبقية الأمراء للقبض على تنكز وتعويقه عن الخروج ريثما تصل العساكر من مصر، فوصل نائب صفد، واجتمع مع قطلوبغا الفخري واتفقا على كيفية إمساك تنكز، وتوجه سيف الدين أَلْلمش الحاجب إلى القابون [213]، ووعر الطريق، ورمى الأخشاب فيها وأحمال التبن وبرَّك الجمال وقال للناس: "إن غريم السلطان يعبر الساعة عليكم فلا تمكنوه". وركب الأمراء واجتمعوا على باب النصر، وتنكز في غفلة عما يراد به.[214]

ولما أدرك تنكز ما يراد به حاول المقاومة، ولكنه استسلم بحجة خوفه على دمشق من الفتنة، ولعله أدرك أنه لا قبل له بتلك القوة، فأخذ سيفه وقُيّد بصورة مهينة، وأرسل إلى السلطان في 23 ذي الحجة 740هـ/17 حزيران 1340م. ووصل إلى القاهرة في 7 محرم 741هـ/30 حزيران 1340، وأنزل بمكان ضيق في قلعة القاهرة. وقصد السلطان ضربه بالمقارع (نوع من العصي يستعمل للتعذيب)، فتشفع به الأمير قوصون، وبعث السلطان إليه يهدده حتى يعترف بما لديه من مال، ويذكر من كان موافقاً معه على العصيان من الأمراء، فأجاب تنكز بأن لا مال لديه سوى ثلاثين ألف دينار وديعة لأيتام بكتمر الساقي، وأنكر أن يكون خرج عن الطاعة، ثم أمر السلطان أن يخرج إلى الإسكندرية، فأخرج إليها ليلاً مع إبراهيم بن صابر المقدم،[215] وقتله ابن صابر في 15 محرم 741هـ/11 تموز 1340[216]. وفي التاريخ نفسه أمر نائب السلطنة الجديد في دمشق الطنبغا الصالحي، بتوسيط مملوكي تنكز، جنغية وطغيه وعلقا على الخشب، ونودي عليها: هذا جزاء من تجاسر على السلطان الناصر.[217]

وقد أمر السلطان بتقويم أملاك تنكز ومصادرتها، واستدعى لذلك أهل الخبرة وشهود القيمة وكُتِبت محاضر أرسلت للسلطان وتم تتبع أموال تنكز، فوجد له ما يجل وصفه، وعملت لبيع حواصله عدة حلق (مزادات)، تسولى البيع فيها الطنبغا الصالحي نائب دمشق، والأمير أرقطاي، وهما ألد أعدائه[218]، وتتبع محمد أحمد دهمان ثروة تنكز وأحصاها، وبلغ مجموعها (8.867500) ثمانية ملايين وثمانمائة وسبعة وستون ألفاً وخمسمائة درهماً[219].

أورد المقريزي ثلاثة أسباب لتغير السلطان على تنكز، أعادها ابن تغري بردي دون الإشارة إلى مصدره؛ أولها: أن تنكز كتب إلى السلطان يستأذن في التوجه إلى جعبر فمنعه السلطان من ذلك لما في تلك البلاد من الغلاء، وألحّ تنكز في الطلب والجواب يرد بمنعه، حتى حنق من السلطان وقال: "والله لقد تغير عقل أستاذنا، وصار يسمع من الصبيان الذين حوله! ووالله لو سمع مني لكنت أشير عليه بأن يقيم أحد أولاده، وأقوم أنا بتدبير أمره، ويبقى هو مستريحاً"، فكتب بذلك جركتمر[220] للسلطان، فكان يتخيل دون هذا، وأسر في نفسه منه شيئاً.[221]

أما السبب الثاني فهو أن أرتنا نائب الروم[222]، بعث كتاباً مع رسوله إلى السلطان، و لم يكتب معه كتاباً إلى تنكز، فغضب تنكز لعدم مكاتبته، وردّ رسوله من دمشق، فأبلغ أرتنا السلطان بذلك، وسأله ألاّ يطلع تنكز على ما بينه وبين السلطان، والهم تنكز بأمور أوجبت شدة تغير السلطان عليه.[223]

وثالث تلك الأسباب أن تنكز غضب على جماعة من مماليكه، وضربهم وسجنهم بالكرك والشوبك، فكتب أحدهم وهو جوبان[224] وكان أكبر مماليكه إلى الأمير قوصون يشفع به للإفراج عنه من سجن الشوبك، فكلم قوصون السلطان في ذلك، وكتب إلى تنكز يشفع في جوبان فلم يستجب، فكتب إليه ثانياً وثالثاً، فلم يجب. فاشتدّ غضب السلطان حتى قال للأمراء: "ما تقولون في هذا الرجل؟ هو شفع عندي في قاتل أخي فقبلت شفاعته، وأخرجته من السجن وسيرته إليه يعني طشتمر أخا بتنخاص[225] وأنا أشفع في مملوكه ما يقبل شفاعتي!" وكتب لنائب الشوبك بالإفراج عن جوبان فأفرج عنه.[226]

ويذكر الصفدي متشككاً سبباً آخر لتغير السلطان على تنكز، أعاده الكتبي وابن حجر، لا بل راح ابن حجر يفنده وهو وشاية الشيخ حسن بن دمرداش[227] بتنكز لدى السلطان، إذ يقول: "وكان الشيخ حسن بن دمرداش قد أهمه أمره وخافه، فيقال : إنه نمّ عليه عند السلطان، وقال له: إنه قصد الحضور إلى عندي والمخامرة عليك (الخروج عن طاعة السلطان) فتنكر السلطان له، وكان السلطان في عزم تجهيز الأمير سيف الدين بشتاك ويلبغا اليحياوي[228] وعشرين أميراً من الخاصكية معهم بنتا السلطان إلى دمشق ليزوجوهما بابني الأمير سيف الدين تنكز".[229]

وإذ شك الصفدي في ذلك من خلال إثباته في أول الخبر كلمة "فيقال"، راح ابن حجر يشرح ذلك بأن الحسن ابن دمرداش كان يتمنى أن يدخل الشام ويأخذها، ويهاب تنكز، فلم يزل يعمل الحيل إلى أن أرسل رسولاً إلى الناصر محمد، وأخبره على لسان الشيخ حسن أن تنكز طلب الحضور إلى عندي.[230] ولعل الإشاعة التي سرت في دمشق في تلك الفترة عن عزم تنكز التوجه إلى بلاد التتار وأبلغها طاجار للسلطان،[231] فعلت فعلها لدى السلطان، ولكنها لا تخدم هدف الحسن بن دمرداش إذا كان ما ذهب إليه ابن حجر صحيحاً؛ لأن خروج تنكز من الشام يسهل عليه الاستيلاء عليها، فإذا كان الأمر على هذا النحو، فالأجدر به أن يكتم سر تنكز ويتعاون معه ليصل إلى غرضه!

ويؤيد ابن خلدون ما كان من أمر الحسن بن دمرداش دون ذكره بالاسم، إذ يقول: "... ولما توفي أبو سعيد وانقرض ملك بني هولاكو وافترق أمر بغداد وتوريز (تبريز) وكانا معاً يجاورانه ويستنجدانه وسخط بعضهم فراسل السلطان بغشه وإدهانه في طاعته وممالأته أعداءه وشرع السلطان في استكشاف حاله ...."[232]. وأما ابن إياس فيرى أن سبب القبض على تنكز هو تمنعه عن الإجابة إلى طلب السلطان إليه بالمسير إلى القاهرة رغم تكرار الطلب.[233]

وتبدو كل تلك الأسباب التي تمت الإشارة إليها إلى جانب وشاية قرمشي وخديعة طاجار، وحتى ما فعله تنكز بالنصارى إثر حريق دمشق دون استشارة السلطان، ووضوح شخصية تنكز، الذي وصفه الصفدي قائلاً: "ولم يكن عنده دهاء ولا له باطن، ولا عنده خديعة ولا مكر، ولا يصبر على أذى ولا يحتمل ضيماً، ولا فيه مداراة ولا مداهنة لأحد من الأمراء"،[234] تبدو كلها غير كافية دون السبب الأهم، وهو ما كان في نفس السلطان من حقد على

تنكز، لسبب ربما غفل عنه تنكز، وحفظه السلطان وداراه سنين. ويرجع إلى موت بكتمر الساقي وابنه اللذين اتهما السلطان بدس السم لهما سنة 733هـ/1332م.[235]

لقد كانت العلاقة على ما يبدو وثيقة بين بكتمر الساقي وتنكز، فقد كان بكتمر أحياناً يُنتدب لاستقبال تنكز عندما يتوجه إلى مصر، ويسكنه في بيته، وبينهما مصاهرة سبقت الإشارة إليها ، إذ تزوج أحمد بن بكتمر قطلوملك ابنة تنكز، كما كان بكتمر يستأمن تنكز على أمواله بدليل أنه اعترف أثناء التحقيق معه للكشف عن أمواله أن ليس لديه إلا ثلاثين ألف دينار وديعة لأيتام بكتمر الساقي، وبناءً على ذلك يمكن فهم خوف تنكز عندما بلغه خبر موت بكتمر الساقي، وتعليقه عليه، الذي يشير إلى اتهام السلطان بقتله، وخشيته من أن ينتهي إلى ما انتهى إليه صديقه. يقول اليوسفي في ذلك: "ومما أخبرني به ناصر الدين دويداره، بعد توفي أستاذه، أنه لما صح عنده خبر بكتمر قال: طلبني وقال: سمعت موت بكتمر وولده؟ قلت: "نعم". قال: "الله يرد العاقبة إلى خير". قال: فقلت: يا خوند الله يحفظك، وإيش كنت أنت من بكتمر، أنت مملوك السلطان ومكانتك معروفة عنده"، نظر إلي وقال: يا محمد ما أنت أخبر مني بالسلطان، والله إن عاش وطال عمره لا خلى لي ولا لغير".[236]

ويؤيد ما ذكره صلاح الدين الصفدي، ونقله عنه ابن تغري بردي، إضمار السلطان الحقد لتنكز رغم مبالغته في إكرامه خلال السنوات الأخيرة كغطاء يخفي حقيقة ما في نفسه، إذ يقول: "وكان الملك الناصر ملكاً عظيماً محفوظاً مطاعاً ذا بطش ودهاء، وحزم شديد وكيد مديد ... وكان يصبر الدهر الطويل على الإنسان وهو يكرهه تحدث مع أرغون الدوادار في إمساك كريم الدين الكبير قبل القبض عليه بأربع سنين، وهمّ بإمساك تنكز لما ورد من الحجاز في سنة ثلاث وثلاثين بعد موت بكتمر الساقي، ثم أنه أمهله ثماني سنين بعد ذلك".[237]

وتستبعد حياة الحجي، وكذلك عبد الجبار العملة أن الناصر محمد كان يظهر خلاف ما يبطن تجاه تنكز، وأن فيما ذكره الصفدي ونقله عنه ابن تغري بردي شيئاً من المبالغة، وأن السلطان لم يقرر القبض على تنكز سوى في الأشهر الأخيرة من سنة 740هـ/1341م.[238]

ولكن التدقيق في سيرة طشتمر الساقي حمص أخضر، نائب صفد الذي ألقى القبض على تنكز، والذي خلط كل من الحجي والعملة بينه وبين طشتمر أخا بتخاص[239]، يجلو شيئاً من الغموض في هذه المسألة، ويعزز ما ذكره الصفدي وابن تغري بردي من إخفاء السلطان خلاف ما يظهر تجاه تنكز، فبينما كان طشتمر أخو بتخاص في بداية فترة اعتقاله في الإسكندرية،[240] أمّرَ الناصر محمد طشتمر حمص أخضر، وبنى له داراً، واشترى له بستاناً بتسعين ألف درهم سنة 712هـ/1312.[241]

وفي 22 شعبان 722هـ/3 أيلول 1322م ختن السلطان أولاد ثلاثة من الأمراء: وهم بكتمر الساقي، وطشتمر حمص أخضر، ومنكلي بغا الفخري[242]، وأقام لهم احتفالاً لمدة أربعة أيام، ورمى الأمراء الذهب عليهم، فبلغ نصيب ابن بكتمر الساقي أربعة آلاف وثلاثمائة وثمانين ديناراً، ونصيب ابن طشتمر حمص أخضر أكثر من ثلاثة آلاف دينار، ونصيب ابن منكلي بغا ألف وثمانمائة دينار[243]، وبعد سنة قبض عليه، وأفرج عنه من يومه،[244] ولما قدم طشتمر حمص أخضر من الحجاز في 9 محرم 724هـ/8 تشرين أول 1323، وكان قد سافر بعد الإفراج عنه، أنعم عليه السلطان بألفي دينار وغلال كثيرة ومال جزيل.[245]

ولما أمسك أرغون الدوادار في المحرم 727هـ/شباط–آذار 1326م ثم أُرسل إلى نيابة السلطنة في حلب أمسك طشتمر حمص أخضر هو وقطلوبغا الفخري، الذي كان طشتمر يدعوه أخي، وكان تنكز آنذاك في القاهرة فشفع فيهما، فأفرج عنهما، وطلب السلطان من تنكز أن يأخذ قطلوبغا الفخري معه إلى الشام، واستبقى طشتمر حمص أخضر عنده في القاهرة.(246)

ولما توجّه السلطان إلى الحجاز سنة 732هـ/1331م، كان طشتمر حمص أخضر أحد الأمراء الأربعة الذين جعلهم مقيمين في القاهرة (247)، وبعد وفاة نائب صفد الأمير أيتمش المحمدي، عُين طشتمر حمص أخضر نائباً للسلطنة في صفد في 7 محرم 737هـ/16 آب 1336، وزيد على إقطاع النيابة، وأنعم على ولديه بإمرتين.(248)

ويقول الصفدي في ترجمته لطشتمر حمص أخضر: "ولما جهزه إلى صفد سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة (والصحيح ما ذكر آنفاً 737هـ) استعفى وتضرع وطلب الإقالة فدخل قوصون إلى المرقد، وخرج مرتين، وفي الثالثة قال له: بُس الأرض ولا تتكلم كلمة واحدة، فباس الأرض وتوجه إلى بيته، وجهز إليه السلطان خيولاً بسروجها وإنعاماً، وفي يوم الخميس أجلسه بين يديه بعد الخدمة، وقال له : ما أجهزك إلى الشام إلا لتقضي لي فيه شغلاً، وأكب على رأسه يقبله وودعه، قلت: وكان ذلك الشغل المشؤوم إمساك تنكز، وجهز معه طاجار الدوادار وقال له: "بعدما توصله إلى صفد، توجه إلى دمشق وقل للأمير نائب الشام: هذا خشداشك (زميلك) الكبير، وقد صار جارك فراعه ولا تعامله معاملة من تقدم".(249)

ويقول اليوسفي في هذا المعنى: "واقتضى رأي السلطان تولية الأمير سيف الدين طشتمر الساقي لنيابة صفد، وطلبه إليه، وطيب خاطره، وزاده على إقطاع النيابة، وأمر ولديه وعرّفه أن لا يكون لنائب الشام أمر ولا يكتب إليه، ومهما كان له يكتب للسلطان، وأسرّ إليه أموراً كانت في نفسه يأتي ذكرها. ورسم أيضاً لنائب الشام أن يتأدب مع طشتمر، وأنه ولاّه نيابة صفد، وأسرّ له مشافاة يبلغ خبرها ويطيب خاطره، ويعرفه أنه كان في نفسه أن يخرج طشتمر مثلما خرج خشداشه قطلوبغا الفخري، وأنه ما بقي يختار أن يكون مقيم في مصر ...."(250)

ولعل ما ذكره الشجاعي في هذا السياق يزيده وضوحاً، إذ يقول: "... وكان السلطان بعد صلاة الجمعة نهار حضور طاجار عندما خرجت أوراق المجردين كتب كتاب الأمير سيف الدين طشتمر حمص أخضر نايب صفد وهو يعرفه فيه أخبار تنكز، وما جرى منه ويقول له: يا ابني ما خبيتك إلا لمثل هذا الوقت فتبصر أيش تعمل، وتركب بنفسك تروح إلى دمشق وتجتمع بامرايها وتتفقوا على مسك تنكز ... ".(251)

كما أن فرح السلطان وغبطته بمسك تنكز وثناءه على طشتمر حمص أخضر عندما ورده الخبر يكشف كيده لتنكز منذ مدة ليست باليسيرة، وأنه كان يدبر الأمر بروية حتى حان الوقت المناسب ويقول الشجاعي في ذلك: "ففرح السلطان بذلك فرحاً عظيماً ما عليه مزيد وأراد أن يدق البشاير فمنعته الأمرا والخواص عن دق البشاير وأخلع على البريدي ورسم له بأمرة عشرة، وأرسل إلى طشتمر كتاباً يشكره على فعله، ويثنوا عليه بما دبره وشكره عند الأمراء وقال ما كنت أظن أن يجيء من طشتمر مثل هذا الحال جميعه وأرسل يقول لطشتمر تحضر الينا وأيضاً تحضر قطلوبغا الفخري لنكافيهم على خدمتهم وما صنعوه ".(252)

وأما قطلوبغا الفخري، الفول المقشر[253]، فلا تكتمل الصورة من دونه، فهو أخو طشتمر حمص أخضر، أُمّرا معاً، واعتقلا سنة 727هـ/1326م، وأفرج عنهما بشفاعة تنكز معاً، وقتلا بظاهر الكرك في أول المحرم 743هـ/6 حزيران 1342م معاً.[254] وكان قطلوبغا الفخري من أكابر مماليك الناصر محمد كما ذكر صلاح الدين الصفدي الذي قال في ترجمته: "... ولم يكن لأحد من الخاصكية ولا من غيرهم إدلاله على السلطان، ولا فيهم من يكلمه بكلامه، ويرد عليه الأجوبة الحادة المرة وهو يحتمله، وقد تقدم شيء من ذكره في ترجمة أخيه سيف الدين طشتمر حمص أخضر، ولم يزل عند السلطان أثيراً على المكانة إلى أن أمسكه في نوبة إخراج أرغون النائب إلى حلب في سنة سبع وعشرين وسبعمائة، وكان الفخري ممن يكره الأمير سيف الدين تنكز ويحط عليه، ولما أخرجه السلطان معه إلى الشام... لم يزل يدخل في قلبه بالخدمة.... فأحبه تنكز محبة شديدة حتى لم يبقَ عنده بدمشق أعز منه... ولم يزل في دمشق على هذا الحال إلى أن كتب السلطان إلى الفخري في الباطن في إمساك تنكز وقال له: يا ولدي ما خبأتك إلا لهذا اليوم، أبصر كيف تكون، وهذا من راح معه بلا دنيا ولا آخره، فاجتمع هو والأمراء بدمشق، وخرجوا إلى الأمير سيف الدين طشتمر، وأمسكوا تنكز ..."[255]

ولقد استوجب نجاح الأخوين قطلوبغا الفخري، الفول المقشر، وطشتمر حمص أخضر، في المهمة التي ادخرهما السلطان لها مكافأتهما مكافأة تناسب حجمها، فقد استدعى قطلوبغا الفخري وأنعم عليه بتقدمة ألف، وهي أعلى المراتب في النظام العسكري المملوكي، ثم قدم طشتمر حمص أخضر فخلع عليه بنيابة حلب.[256]

ويتضح مما تقدم أن الناصر محمد كان يعد للإيقاع بتنكز منذ فترة إن لم تكن ثماني سنين -كما ذهب الصفدي، وهو الأرجح لحسن علاقته ببكتمر الساقي، الذي دق ناقوس الخطر لديه كما تقدم- فعلى الأقل منذ مطلع سنة 737هـ/صيف 1336م، عندما عُين طشتمر حمص أخضر لنيابة صفد، "ليقضي للسلطان في الشام شغلاً"، وما الإكرام الذي كان يجده تنكز عند السلطان، خاصة ذاك الذي جرى له سنة 739هـ/1338م، إلا للتمويه على ما يخفيه تجاهه، وأن الأموال والإنعامات التي كان يتلقاها، فإنها وبعد أن يستثمرها تنكز وينميها فعائدة إلى السلطان، الذي دأب على تحطيم كبار أمرائه على قاعدة: إن لم تقتله قتلك"، التي سار عليها متبعاً لا مبتدعاً!.

ولم يكن تنكز بغافل عن هذا الجانب في شخصية السلطان، ويتجلى ذلك في حديثه مع دواداره بعدما بلغه خبر موت بكتمر الساقي وابنه الذي سبقت الإشارة إليه، وفي دفاعه عن نفسه عند قوصون الذي صعد إليه في قلعة القاهرة بعد اعتقاله فيها، إذ يقول: "... وأنا فما عملت شيء ولا لي ذنب واحد أعرفه، وقال له الأمير قوصون: ما هو ذنبك الذي تعرفه؟ قال له تنكز: ذنبي إنني كبرت، وطالت مدتي وانتظر وفاتي فلم أمت وكل نظرائي من خشداشيتي راحوا، وأنا مملوك السلطان وعمري أعمل على ما يرضيه، وأمشي حسب ما يختار، ولا يجري مني شيء ..." [257]

وإذا ما تذكرنا أن كل ما وصل إليه تنكز من مجد كان بفضل السلطان، فإن روح المملوك المتأصلة فيه لا تسمح له بأن يطمح إلى أكثر مما وصل إليه، ولم يكن ليصبر كل هذه المدة حتى يسعى لتحقيق طموحه، ولعل ما قاله لقوصون، وأتى عليه الشجاعي قبل النص السابق يعكس روح المملوك التي لم تتخلَّ عنه تجاه السلطان رغم استكباره على من هم دونه حين قال: "... وحضر إليه الأمير سيف الدين قوصون من عند السلطان برسالة وهو يقول له: إيش

هذا الحال الذي فعلته، والأمر الذي قلته؟ أنت لطاجار الدوادار وإيش الموجب لتفريقك على أمراء دمشق الخيل والخلع؟ وما الموجب لمشترك خمسماية هجين ورباطهم بالقرب منك بالمرج وتحليفك للأمراء؟ فقال له تنكز: يا أمير سيف الدين كل الناس لا بد لهم من صديق، ومن عدو ما خلا مني فإني لم يكن لي صديق عاديت سائر الأمراء لأجل السلطان، ولم أجد منهم ولا لي محب ولا صديق وسائر الأمراء تكرهني فمن هو الذي يحلف لي أو يتقرب مني؟ ولو أردت هذا الأمر ما كان هذا حالي ولا اعتمادي مع الناس هذا الاعتماد فمولانا السلطان يكشف عن هذا الأمر وإن وجد معي أحدا فهو المحكم في دمي..."(258).

وقد يرى البعض أنه وقد انكشف أمره لا يملك إلا أن يقول ذلك ويدفع ببراءته من كل ما نسب إليه بعدما أُمسك وقُيِّد واعتقل في قلعة القاهرة، ولكن ما كان ينبغي له أن يقع في الإرباك الذي وقع فيه، ويستسلم بالصورة المهينة التي استسلم بها لو صحت فرضية التهيؤ العسكري والاستعداد لمواجهة أي طارئ كما ذهبت حياة الحجي.(259)

وفي الختام نخلص إلى أن الناصر محمد ألحق تنكز بخدمته أثناء سلطنته الثانية، ولما استعاد عرشه للمرة الثالثة رقّاه وولاّه نيابة السلطنة في دمشق، وقدمه على نواب الشام وبالغ في إكرامه، فتعاظمت مكانته وتنامت ثروته وأملاكه، فاستكبر على كل من هم دونه، وجلب له ذلك الكثير من الحاسدين الذين رغبوا في زوال نعمته والقضاء على نفوذه عند سلطان تلبسه الشك في كل من حوله جرّاء ما عانى على أيدي كبار الأمراء المماليك، وصار لخوفه على حياته وعلى ملكه يأخذ بالشبهة؛ لأن لسان حال أقطاب النظام الذي تربى وعاش فيه يقول: "إن لم تقتله قتلك".

ولأن هذا السلطان عاش مرعوباً من مماليكه، فقد أرعبهم بقدر ما أرعبوه، فأخذهم بأسلوب تفرد به، وهو أن يدني إليه من يلمح فيه كفاءة، فيقدمه ويعلي منـزلته، ولكن عند أول وشاية يحطمه غير متحقق من صحة الوشاية، فلا كبير عنده، ولا عزيز عليه من رجاله وأركان دولته. ولقد كان تنكز آخر زملائه على الطريق، وأحسّ أن دوره آت منذ بلغه موت بكتمر الساقي، ولكن دهاء السلطان كان أكبر، ومكره كان أوسع، إذ أصهر إلى تنكز ولاطفه وبالغ في إكرامه وهو يحيطه بالعيون الذين يوافونه بكل ما يفعل، لا بل ويزيدون.

ولم تنقضِ سنة على آخر زيارة لتنكز لمصر، حيث وجد من حفاوة السلطان به ما أدهش مؤرخي الفترة، حتى انجلت الصورة عند أول حدث، وهو حريق دمشق، تصرف فيه المملوك المغرور بما لا يوافق رأي السلطان، ليلحق بنظرائه الذين سبقوه من أمثال: أرغون الدوادار، وبكتمر الساقي، وآقوش نائب الكرك، وألماس الحاجب وغيرهم. ولكن يبدو أن تسارع الأحداث، وانكشاف تنكز من خلال عيون السلطان، وعدم كتمانه ما بنفسه عندهم أربكه عن تدبر أمر هربه لينجو بنفسه، وبما يستطيع أن يأخذ من مال لا أكثر؛ لأن الثورة ضد السلطان غير واردة بعد تلك السنين الطويلة التي مضت عليه ملكاً غير متوج في الشام، ويعلم أنه لن يجد له نصيراً وقد استكبر، وكثر أعداؤه الذين ربما خافوا منه أن يبقى حياً بعد السلطان الذي كان يقترب من أجله، هذا عدا عن أنه لن يجد نصيراً، ولا مجيراً وقد وضع كل سهامه في جعبة السلطان، والذي يروم أمراً كالذي اهم به تنكز، إن كان خروجاً عن الطاعة أم هروباً، يحتاط له قبل أن يحاط به، وهو على أي حال لم يكن الأول ولا الأخير في ذلك العصر من ضحايا الاحتراب على السلطة بين ذوي الشوكة من المماليك، الذين نخرهم ذلك الداء والعالم من حولهم يتغير ويتبدل!.

الهوامش والتعليقات

(1) تولى الناصر محمد بن قلاوون السلطنة ثلاث مرات؛ كانت الأولى بعد مقتل أخيه الأشرف خليل سنة 693هـ/1293، وكان إذ ذاك طفلاً لم يتجاوز التاسعة من العمر، فعزل سنة 694هـ/1394، وتولى العادل كتبغا حتى سنة 696هـ/1296 م الذي أُجبر على التنازل لصالح المنصور لاجين. واستمرت سلطنة لاجين حتى مقتله سنة 698هـ/1298م. ثم أعيد الناصر محمد للسلطنة للمرة الثانية حتى سنة 708هـ/1307م. فاغتصب العرش المظفر بيبرس الجاشنكير وحكم سنة تقريباً. وعاد الناصر محمد إلى عرش السلطنة للمرة الثالثة سنة 709هـ/1309م. واستمر حتى مات سنة 741هـ/1340م.

(2) قُتل ممن تولى السلطنة حتى سلطنة الناصر محمد الأولى كل من: المعظم تورانشاه، المعز أيبك، شجر الدر، المظفر قطز، الأشرف خليل، وبدر الدين بيدرا. ولما قتل المنصور لاجين عاد الناصر محمد للعرش ثانية. وفي سلطنته الثالثة قُتل المظفر بيبرس الجاشنكير .

(3) انظر حياة ناصر الحجي، "الأمير تنكز الحسامي نائب الشام في الفترة 712-741هـ/1312-1340م"، كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية الأولى 1980، 1399 هـ؛ حياة ناصر الحجي، الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده، الكويت، 1983؛ عبد الجبار العملة، نيابة دمشق الشام في عهد الأمير تنكز الحسامي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة النجاح، نابلس، 2000 .

(4) تقي الدين أحمد بن علي المقريزي (ت845/1441م) السلوك لمعرفة دول الملوك، 4م، 1-2 تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، 1956-1958، 3-4 تحقيق سعيد عاشور، القاهرة، 1970-1972. ج2، ص73؛ أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي (ت874هـ/1469م) ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، قدم له وعلق عليه محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992، ج9، ص7.

(5) وصفه ابن تغري بردي قائلاً: " وكان مفرط الذكاء يعرف جميع مماليك أبيه وأولادهم بأسمائهم، ويعرّف بهم الأمراء خشداشينهم (زملائهم) فيتعجبون الأمراء من ذلك، وكذلك مماليكه لا يغيب عنه اسم واحد منهم، ولا وظيفة عنده، ولا مبلغ جامكيته (راتبه)، هذا مع كثرتهم، وكان أيضاً يعرف غلمانه وحاشيته على كثرة عددهم. ولا يفوته أحد من الكتاب ... " ابن تغري بردي، النجوم، ج9، ص133-134.

(6) ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات (ت807هـ/1405) تاريخ الدول والملوك، نشر باسم تاريخ ابن الفرات، ج7-9، تحقيق قسطنطين زريق ونجلاء أبو عز الدين، المطبعة الأمريكانية، بيروت، 1936-1942، ج8، ص112-133؛ المقريزي، السلوك، ج1، ص762-766؛ طه الطراونة، مملكة صفد في عهد المماليك، دار الآفاق الجديدة، بيروت 1982، ص62-68.

(7) المقريزي، السلوك، ج2 ص119؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج9، ص31.

(8) ابن تغري بردي، النجوم، ج9، ص143 .

(9) المصدر نفسه، ج9، ص148 .

(10) صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، (ت764هـ/1363)، الوافي بالوفيات، 15 م، تحقيق مجموعة من الأساتذة، فرانز شتاينر بفيسبادن، 1949-1979، ج10، ص420؛ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، أعيان العصر وأعوان النصر، موقع الـوراق . http://www.al-warraq.com، ج1، ص253-254. وحول الآراء المختلفة عن أصل تنكز، انظر: حياة الحجي، "الأمير سيف الدين تنكز الحسامي"، ص11-13؛ عبد الجبار، العملة، 101-103 .

(11) أمير عشرة: إحدى مراتب أرباب السيوف، يكون في خدمة صاحبها عشرة مماليك، ويكون صغارالولاة من جملة هذه الرتبة .(القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص15).

(12) جمال الدين آقوش بن عبدالله الدواداري المنصوري من المماليك الشراكسة نقل إلى دمشق أميراً، ثم تولى نيابة السلطنة فيها سنة 698هـ/1299 إثر وقوعها بيد المغول. وكان من مؤيدي بيبرس الجاشنكير، ولكنه لم يقاوم الناصر محمد عند عودته للعرش للمرة الثالثة. ومع ذلك عزله الناصر عن نيابة دمشق في أواخر سنة 1310/709 ونقله إلى نيابة طرابلس. ثم فر إلى المغول، ومات في همذان بعد سنة 720هـ/1320. (الصفدي، أعيان العصر، ج1، ص159-163).

(13) الصفدي، الوافي ج 10، ص420؛ شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني، (ت853هـ/1449)، الـدرر الكامنه في أعيان المائة الثامنة، 5م، تحقيق سيد جاد الحق، دار الكتـب الحديثـة، القـاهرة، 1966، ج2، ص55.

(14) أمير طبلخاناه أو أمير أربعين يعطى صاحبها إقطاعاً يكفي أربعين مملوكاً، ويسمح له بضرب طبل على بابه عند ذهابه لأداء الخدمة (القلقشندي، صبح، ج4، ص15).

(15) المقريزي، السلوك، ج2، ص77؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج9، ص12.

(16) أرغون الدوادار: أرغون بن عبدالله الناصري من مماليك الناصر محمد بن قلاوون اشتراه ورباه وأدبه، ورقاه لما رأى فيه النجابة، وعينه دواداراً بعد الأمير بيبرس الدوادار، ثم ولاه نيابة السلطنة في مصر نحو ست عشرة سنة. ثم ولاه نيابة حلب واستمر أربع سنين ومات سنة 731هـ/1330. (ابن تغـري بـردي، النجـوم، ج9، ص210).

(17) الجوكندار الكبير: سيف الدين بكتمر الجوكندار، كان يتولى وظيفة أمير جاندار (أي الذي يستأذن على دخول الأمراء للخدمة السلطانية، ويدخل أمامهم الى الديوان) وقد قرر معه الناصر محمد الخلاص من بيبرس الجاشنكير وسلار، فاكتشف أمره فحلف لهما أنه معهما، فشك فيه الناصر وأخرجه إلى نيابة صفد سنة 707هـ/1307، ثم عين بعد عودة الناصر محمد للعرش للمرة الثالثة نائباً للسلطنة في مصر. ودبر السلطان مؤامرة لاعتقاله فاعتقل وأرسل إلى الكرك وسجن فيها وقتل خنقاً مع عدد من الأمراء سنة 716هـ/1316م (ابن حجر العسقلاني، الـدرر، ج2، ص19، المقريـزي السـلوك، ج2، ص36، 168). والجوكندار: حامل عصا السلطان، وهي عصا طويله معقوفة الرأس تستخدم في لعب الكرة (القلقشندي، صبح، ج5، ص458).

(18) سودي: سيف الدين سودي بن عبدالله الناصري ممن أنشأه الناصر محمد من مماليكه، ولاه نيابة حلب فكان مشكور السيرة، ومات سنة 714هـ/1314 (ابن تغري برادي، النجوم، ج9، ص162).

(19) الصفدي، الوافي، ج10، ص421؛ محمد بن شاكر الكتبي (ت764هـ/1263، فوات الوفيات، 5م، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1973، ج1، ص251-252؛ ابن حجر العسقلاني، الدرر، ج2، ص55، "حياة الحجي الأمير تنكز الحسامي"، ص13؛ العملة، نيابة دمشق، ص102.

(20) أبو الفداء عماد الدين إسماعيل (732هـ/1331م)، المختصر في أخبار البشر، موقع الوراق، http://www.al-warraq.com، ج1، ص500؛ المقريزي، السلوك، ج2، ص77.

(21) ركن الدين بيبرس الداودار المنصوري الخطائي، كان رأس الميسرة، وكبير الدولة، تولى نيابة السلطنة، ثم سجن وأفرج عنه وأعيد إلى منزلته وكان فاضلاً عاقلاً وافر الهيبة، وله منزلة عند السلطان. مات سنة 725هـ/1325م، عن عمر يناهز الثمانين (الصفدي، أعيان العصر، ج1، ص241).

(22) أبو الفداء، المختصر، ج2، ص5، 8؛ المقريزي، السلوك، ج2، ص102-103؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج9، ص25-26 .

(23) أبو الفداء، المختصر، ج2، ص8؛ المقريزي، السلوك، ج2، 118؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج9، ص30 .

(24) المقريزي، السلوك، ج2، ص117؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج9، ص30.

(25) جمال الدين آقوش بن عبدالله الأشرفي المعروف بنائب الكرك أحد مماليك قلاوون، أعطاه لابنه الأشرف خليل ثم صار للناصر محمد، وعينه في سلطنته الثانية نائباً للكرك، ثم تولى العديد من المواقع المهمة كنيابة السلطنة في دمشق وطرابلس، سجن في الإسكندرية سنة 735هـ/1334، ومات في سجنه في السنة التالية (الصفدي، الوافي، ج9، ص336-339)؛ ابن حجر، الدر، ج1، ص395-396) .

(26) ابن تغري بردي، النجوم، ج9، ص30 .

(27) إسماعيل بن عمر بن كثير (ت774هـ/1327)، البداية والنهاية في التاريخ، 14م، تحقيق علي سيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1988، ج14، ص74 .

(28) سيف الدين أرقطاي: يعرف بالحاج أرقطاي من مماليك الأشرف خليل وجعله الناصر محمد أميراً، خرج مع تنكز إلى الشام، ثم عين نائباً للسلطنة في حمص سنة 716هـ/1316، ثم نقل إلى صفد سنة 718هـ/1318 م. ثم طلب إلى مصر وكان يتولى فيها نيابة الغيبة عند خروج السلطان للصيد، ثم عُين نائباً بطرابلس وبقي فيها إلى أن هرب واعتقل بالإسكندرية، وأفرج عنه في أول دولة الصالح إسماعيل، ثم تولى نيابة حلب وتولى نيابة دمشق سنة 748هـ/1347. ومات سنة 750هـ/1349. (الصفدي، أعيان العصر، ج1، ص134-135؛ ابن حجر العسقلاني، الدرر، ج1، ص354).

(29) المقريزي، السلوك، ج2، ص118؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج9، ص30؛ محمد بن أحمد بن إياس (ت930هـ/1524م)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، 5م، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1983، ج1، ص441. أما طرنطاي البشمقدار: حضر إلى الشام مع تنكز وأرقطاي

سنة 712هـ/1312م، كان بدمشق حاجباً وكان ذا منزلة عظيمة عند تنكز إلى أن ساءت العلاقة بينهما سنة 732هـ /1332م، فعزل عن الوظيفة. و لم يزل يتنقل من مصر إلى الشام إلى غزة إلى حمص ومات سنة 748هـ /1347. (الصفدي، أعيان العصر، ج1، ص392).

(30) الصفدي، أعيان العصر، ج1، ص134 -135 .

(31) الصفدي، الوافي، ج8، ص261-262؛ المقريزي، السلوك، ج2، ص755.

(32) المقريزي، السلوك، ج2، ص137؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج9، ص32.

(33) شمس الدين الشجاعي (ت بعد 752هـ/1351)، تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي وأولاده، 737-746هـ، مخطوط رقم 1042، مركز الوثائق والمخطوطات، الجامعة الأردنية،55 أ- ب .

(34) سيف الدين بلبان طرنا: كان أمير جاندار بالديار المصرية، ثم عُين نائباً للسلطنة، في صفد سنة 712هـ/1312. فلما اشتكى تنكز منه عزله السلطان وأمر باعتقاله، وبقي في الاعتقال أكثر من عشر سنين، ثم أنه شفع فيه، وأعطي أمرة مائة في دمشق، فأقبل عليه تنكز واختص به. ومات سنة 734هـ/1333، الصفدي، أعيان العصر، ج1، ص231.

(35) المقريزي، السلوك، ج2، ص137؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج9، ص32.

(36) الملك المؤيد صاحب حماه عماد الدين إسماعيل بن الملك الأفضل نور الدين علي بن الملك المظفر تقي الدين محمود بن الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب. وكان الملك الناصر يكرمه ويعظمه. تولى حماه منذ سنة 711هـ/1311م، ومات في 28 محرم 732هـ/31 تشرين أول 1331م. (ابن كثير، البداية، ج14، ص182).

(37) المقريزي، السلوك، ج2، ص142 .

(38) ابن تغري بردي، النجوم، ج9، ص215 .

(39) الشجاعي، تاريخ الملك الناصر، 55 ب – 56 أ .

(40) علم الدين سنجر الجاولي: كان مملوكاً لأمير يقال له جاولي في عهد الظاهر بيبرس، ثم صار من مماليك قلاوون، وتولى نيابة الشوبك في عهد كتبغا، وتولى نيابة غزة سنة 711هـ/1311م، بعد عودة الناصر محمد إلى عرش السلطنة للمرة الثالثة.كُلِّف بإجراء الروك في بلاد الشام سنة 713هـ/1313م. اعتقل سنة 720هـ/1320م. وبقي في الاعتقال حتى 728هـ/1327م. وأعطي بعد ذلك إمرة أربعين، ثم إمرة مائة. تولى نيابة السلطنة في حماه 742هـ/1342هـ -746هـ/1345م. ثم عاد إلى نيابة غزة. ومات في مصر سنة 745هـ/1345م (الصفدي، الوافي، ج15، ص482-483؛ ابن حجر، الدرر، ج2، ص226-227؛ محمود علي عطاالله، نيابة غزة في العهد المملوكي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1986، ص280-282).

(41) المقريزي، السلوك، ج2، ص209؛ ابن حجر، الدرر، ج2، ص267.

(42) الأمير سيف الدين طينال الأشرفي الناصري، تتري الجنس، تولى نيابة طرابلس، ثم غزة، ثم صفد، كان من

أعيان مماليك الناصر محمد. مات سنة 743هـ/1342. (الصفدي، الوافي، ج16، ص516-517؛ ابن حجر، الدرر، ج2، ص232-233؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج10، ص84.

(43) المقريزي، السلوك، ج2، ص292 .

(44) قرطاي بن عبدالله الأشرفي المنصوري الجوكندار، كان معظماً عند الملك الناصر محمد بن قلاوون، ولاّه نيابة طرابلس، ومات بها سنة 734هـ/1333م، (ابن حجر، الدرر، ج3، ص248؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج9، ص223-224).

(45) اليوسفي، نزهة، ص114؛ المقريزي، السلوك، ج2، ص357-358، كانت نيابة غزة تأتي في المرتبة السادسة بعد نيابة صفد، أما طرابلس فكانت تأتي في المرتبة الثالثة بعد دمشق وحلب (محمود عطاالله، نيابة غزة، ص122، 284).

(46) الأمير سيف الدين بيغرا الناصري ثم المنصوري: أحد مماليك الناصر محمد، تولى عدة وظائف منها: أمير سلاح وأمير جاندار. كان ممن أوقع الحوطة على النشو، وأحضر أولاد تنكز وحريمه إلى مصر، وقام بعدد من المهام في عهد خلفاء الناصر محمد أهمها: قيادة قوة لمحاربة الناصر أحمد بن محمد بن قلاوون في الكرك سنة 742هـ/1341. واعتقل بعد ذلك وأفرج عنه سنة 745هـ/1344، ثم أصبح كاشفاً للجسور في الوجه القبلي، ثم أمير جاندار، ثم حاجباً كبيراً في عهد الكامل شعبان، ثم أخرج إلى حلب بطالاً، مات في حلب سنة 754هـ/1353. (المقريزي، السلوك ج2، ص488، 805، 742، 771)؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج9، ص230).

(47) اليوسفي، نزهة، ص114-116؛ المقريزي، السلوك، ج2، ص357-358.

(48) اليوسفي، نزهة، ص116.

(49) المقريزي، السلوك، ج2، ص358.

(50) القلقشندي، صبح الأعشى، ص4، ص198؛ محمود علي عطاالله، نيابة غزة، ص121 .

(51) أيتمش بن عبدالله المحمدي من مماليك الناصر محمد وخواصه، وهو أحد من كان يندبه الناصر محمد وهو بالكرك لمهماته، ولما تسلطن أمّره، وولاّه نيابة صفد بعد أخيه أرقطاي، ومات فيها بعد نصف سنة على ولايته (ابن حجر، الدرر، ج1، ص423-424؛ ابن تغري بردي النجوم، ج9، ص221).

(52) المقريزي، السلوك، ج2، ص402-403؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج9، ص227 .

(53) بهادر بن عبدالله البدري الناصري تولى نيابة الكرك سنة 725هـ/1325م، واستمر فيها حتى سنة 731هـ/1331؛ اشتكى تنكز من ظلمه وتعرضه لأهل الكرك، فرسم السلطان بعزله وحضوره إلى دمشق مقدماً، وبقي في خاطره من نائب الشام. وبعد القبض عليه نفي إلى طرابلس ومات بها سنة 740هـ/1339 (الشجاعي، تاريخ الملك الناصر، 9 أ-ب؛ اليوسفي، نزهة، ص342؛ المقريزي، السلوك، ج2، ص264، 333، 505).

(54) قطلوبغا الفخري: سيف الدين قطلوبغا بن عبدالله الفخري، كان من أكابر مماليك الناصر محمد، وكان أثيراً

عنده وكان له دلاله عليه. مات مقتولاً سنة 1342/743. (ابن حجر، الدرر ،ج3، ص250-252).

(55) الشجاعي، تاريخ الملك الناصر، 9 أ — ب؛ اليوسفي، نزهة، ص342-343؛ المقريزي، السلوك، ج2، ص408، وحول أفعال بهادر البدري وما قاله لتنكز، انظر: الشجاعي، 9 أ؛ اليوسفي، ص342-343 .

(56) طاجار (طاشار): الأمير سيف الدين الدوادار المارداني كان جميل الشكل أثيراً عند السلطان. فكان لاهياً ماجناً مات مقتولاً سنة (742هـ/341) (الصفدي، أعيان العصر، ج1، ص388). ودوادار تعني حامل دواة السلطان أو الأمير، ويقوم بإبلاغ الرسائل عنه وتقديم الشكاوى إليه (القلقشندي، صبح، ج5، 462) .

(57) الشجاعي، تاريخ الملك الناصر، 9/أ؛ اليوسفي، نزهة، ص343 .

(58) الصفدي، الوافي، ج10، ص422 .

(59) علاء الدين مغلطاي الجمالي، أحد مماليك الناصر محمد، ترقىّ في الخدمة حتى ولي الوزارة. مات في طريق العودة من الحجاز في بداية سنة 732هـ/أواخر 1330/ (اليوسفي، نزهة، ص277، هامش 4) .

(60) سيف الدين طغاي الكبير الحاصلي: كان جميل الشكل أثيراً عند السلطان. غضب السلطان منه؛ لأنه أحس منه طمعاً في العرش وأخرجه إلى صفد، ثم أرسل مغلطاي للقبض عليه، واعتقل بالإسكندرية سنة 718هـ/1318، فكان آخر العهد به. (الصفدي، أعيان العصر، ج1، ص398-399) .

(61) ابن كثير، البداية، ج14، ص99؛ المقريزي، السلوك، ج2، ص183 .

(62) شرف الدين أبو بكر بن شمس الدين محمد بن شهاب الدين محمود كاتب السر في مصر والشام ولد سنة 693هـ/1294، وتوفي في القدس سنة 744هـ/1343. (الصفدي، الوافي، ج10، ص259-264؛ ابن حجر، الدرر، ج1، ص464-465).

(63) محيي الدين بن فضل الله: أبو المعالي يحيى بن فضل الله بن مجلي العمري الدمشقي ولد بالكرك سنة 645هـ/1248، ومات في مصر سنة 738هـ/1338، ثم نقلت رفاته إلى دمشق. (ابن حجر، الدرر، ج4، ص424-425؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج9، ص232) .

(64) المقريزي، السلوك، ج2، ص349 .

(65) اليوسفي، نزهة، ص 238؛ المقريزي، السلوك، ج2، ص380 .

(66) برسبغا الحاجب، سيف الدين برسبغا الحاجب الناصري، كان مقدم ألف، سجن وقتل في سجنه بالإسكندرية سنة 472هـ/1342. (الصفدي، الوافي، ج10، ص114-115).

(67) صرخد؛ بلدة صغيرة ذات قلعة مرتفعة حصينة من جملة بلاد حوران من أعمال دمشق (أبو الفداء، تقويم البلدان، ص258-259).

(68) اليوسفي، نزهة، ص238-239؛ المقريزي، السلوك، ج2، ص379-380؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج9، ص227 .

(69) سيس: عاصمة أرمينيه الصغرى، (قليقية) تقع بين انطاكية وطرسوس، ويذكر أن لها قلعة عظيمة بناها بعض خدام الخليفة العباسي هارون الرشيد. (ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3، ص217).

(70) القان موســى: موسـى بن علي بن بديسو بن طرغـاي بـن هولاكـو خلـف القـان أرباكـا وُون سنة736هـ/1363) واستمر سنة إلى أن قتل في السنة التالية 737هـ/1333م (ابن حجر، الدرر، ج3، ص367-377) .

(71) علي بادشاه: أحد الذين تغلبوا على بغداد بعد وفاة القان بوسعيد، ومات في المحرم 737هـ/آب 1336 . (اليوسفي، نزهة، ص291، هامش1).

(72) الشيخ حسن الكبير: حسن بن حسين بن أقبغا الجلائري المعروف بالشيخ حسن الكبير، ابـن عمـة القـان بوسعيد، عينه بوسعيد نائباً له بعد مقتل جوبان وأولاده وهو مؤسـس الدولـة الجلائريـة الشـيعية تـوفي سنة747هـ/1356. (ابن تغري بردي، النجوم، ج10، ص253 ؛ اليوسفي، نزهة، ص303، هامش2).

(73) طغاي بن سونتاي: ولي ديار بكر بعد وفاة أبيه سنة 732هـ/1343 م (ابـن حجـر، الـدرر، ج2، ص220-221).

(74) دمرداش بن جوبان: كان في حياة أبيه حاكماً لبلاد الروم، هرب عند موت أبيه إلى مصر، وأكرمه السـلطان وما لبث أن أمسكه وقتله سنة 728هـ/1328م (أبو الفداء، المختصر، ج2، ص29) .

(75) اليوسفي، نزهة، 314 – 365 ؛ الشجاعي، تاريخ الملك الناصر، 4أ؛ المقريزي، السلوك، ج2، ص417.

(76) علاء الدين الطنبغا الصالحي الناصري كان من صغار مماليك المنصور قلاوون، وربي عند الملك الناصر محمد بن قلاوون، ولاه حاجباً، ثم نقله إلى نيابة حلب، وشكاه تنكز الى السلطان فعزله من حلب، وولاه غـزة إلى أن غضب السلطان على تنكز فولاه نيابة دمشق بدلاً منه، وبقي فيها حتى مات الناصر محمد وتولى أولاده. مات مقتولاً سنة 742هـ/1341 (ابن حجر، الدرر، ج1، ص436 ؛ ابن تغـري بـردي، النجـوم، ج10، ص60).

(77) الإسكندرونة: مدينة على ساحل البحر المتوسط، بينها وبين بغراس أربعة فراسخ، وبينها وبين إنطاكية ثمانيـة فراسخ. (ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1، ص216).

(78) بغراس: قلعة مرتفعة من جند قنسرين ولها أعين، بينها وبين أنطاكية اثنا عشر ميلاً. (ياقوت الحموي، معجـم البلدان، ج1، ص467) .

(79) إياس: بلدة كبيرة من بلاد الأرمن على ساحل البحر (أبوالفداء، تقويم، ص428-429) .

(80) نهر جيهان (جيحان) أكبر أنهار قليقية أرمنية الصغرى) ينبع من جبال طوروس الداخلية بالقرب من الابلستين، ويصب في خليج إياس على المتوسط (ليسترانج، بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت (د.ت) ص163-164) .

(81) الشجاعي، تاريخ الملك الناصر، 5 أ – 6 ب ؛ اليوسفي، نزهة، 394-401؛ المقريـزي، السـلوك، ج2، ص428-429.

(82) قلعة كوارة: من أحصن قلاع الأرمن، ولها سور مساحته فدان، وثلث فدان وارتفاعه اثنان وأربعـون ذراعـاً أنفق الملك الأرمني أربعمائة وستين ألف دينار على عمارته. (المقريزي، السلوك، ج2، ص429) .

(83) قلعة نجمة (نُجيمة): لم أعثر لها على تعريف في المعاجم الجغرافية، ولكن ابن شاهين الظاهري يذكر قلعة من قلاع ملطية باسم نوحمام، لعلها هي؛ لأن المقريزي أول ما ذكرها باسم نجمية، وضبطها الناشر نقلاً عن Zetersteen نُجَيْمة (غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري (ت 873هـ/1468م، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تحقيق بولس راويس، المطبعة الجمهورية، باريس، 1894، ص52؛ المقريزي، السلوك، ج2، ص420، هامش 6) .

(84) قلعة سرفندكار: قلعة حصينة من بلاد الأرمن، وهي في واد على مقربة من نهر جيحان من البر الشرقي، وشرقي تل حمدون، (أبو الفداء، تقويم البلدان، ص256-257).

(85) الغرارة: مكيال دمشقي تساوي اثني عشر كيلاً، وتعادل في النظام المتري 204.5 كغم (فالتر هنتس) المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة كامل العسلي، عمان، 1970، ص 11) .

(86) التقاوي: بذور القطن والقمح والفول ونحوها مما يبذر في الأرض للزراعة. (إبراهيم أنيس ورفاقه، المعجم الوسيط، ط2، القاهرة، 1972، ج2، 769، مادة قوى) .

(87) المقريزي، السلوك، ج2، ص436.

(88) آل مهنا فرع من آل فضل من ربيعة، كانت لهم إمرة العرب في بلاد الشام في عهد المماليك. (مصطفى الحياري، الإمارة الطائية في بلاد الشام، عمان، 1977، ص61-81).

(89) زبيد: بطن من طيء عرفوا بزبيد حوران، كانوا من أحلاف آل مرا من عرب الشام (القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق إبراهيم الابياري، القاهرة، 1959، ص103) .

(90) المقريزي، السلوك، ج2، ص407-408.

(91) كجكن: الأمير سيف الدين كجكن المنصوري كان من أكابر مقدمي الألوف بدمشق، عمر طويلاً وكان معظماً عند النواب، وكان السلطان الناصر محمد ينتظر موته، ويسأل عنه من كل من يصل من دمشق مات سنة 739هـ/1338، (الصفدي، أعيان العصر، ج2، ص209) .

(92) لؤلؤ الحلبي: بدر الدين لؤلؤ بن عبدالله الحلبي غلام فيدس (فندس) ضامن من حلب، ولي شد الدوادين بحلب، ثم القاهرة. فظلم وتجبر إلى أن عُزل وأخرج إلى حلب بلا إقطاع. مات تحت العقوبة سنة 742هـ/1341 (الصفدي، أعيان العصر، ج2، ص219؛ ابن حجر، الدرر، ج3، ص372-373).

(93) شد أو مشد يعني مفتش فيقال شاد الدوادين؛ أي الذي يفتش على الدواوين ويراجع حساباتها وتسمى العملية شد. وبالتالي فشاد الأغنام يتولى التفتيش عن إعدادها لتقرير الضرائب عليها (سعيد عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ط2، دار النهضة العربية، القاهرة، 1976، ص449).

(94) بيبرس الحاجب: ركن الدين بيبرس بن عبدالله الحاجب من المماليك الناصرية، رقاه الناصر محمد حتى صار أمير مائة ومقدم ألف، ولاه الحجوبية وأرسله إلى اليمن، ثم سجنه تسع سنين وثمانية أشهر، ثم أخرج إلى حلب أميراً بها، ثم نقل إلى إمرة بدمشق، ومات بها سنة 743هـ/1342 م (ابن حجر ،الدرر، ج1، ص508؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج10، ص83).

(95) قرمشي: من مماليك الناصر محمد اعتقله مع أخيه أصلم ست سنين وثمانية أشهر، وأفرج عنهما في أول المحرم 734هـ/منتصف أيلول 1333م، وتولى الحجوبية بدمشق بطلب من تنكز، ثم أصبح حاجباً بصفد ومن ثم نائباً لقلعة صفد. ومات مخنوقاً بدمشق سنة 747هـ/1346. (ابن حجر، الدرر، ج3، ص332-332؛ طه الطراونة، مملكة صفد، ص304).

(96) علاء الدين بن صبح: علاء الدين علي بن صبح كان حاجباً بدمشق أرسله تنكز إلى قلعة طرنده من بلاد الروم عندما استولى عليها الزعيم التركماني ابن دلغادر أول سنة 1338/739 فسّر السلطان بذلك (المقريزي، السلوك، ج2، ص459).

(97) التقليد: المرسوم الموقع من السلطان لتعيين شخص في وظيفة كبيرة (عاشور، العصر المماليكي، ص424).

(98) الشجاعي، تاريخ الملك الناصر، 32أ-ب؛ المقيزي، السلوك، ج2، ص462؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج9، ص91 .

(99) نجم الدين محمود بن علي بن شروان (شروين) المعروف بوزير بغداد قدم من بغداد إلى القاهرة في دولة السلطان الناصر محمد، أمّره السلطان، وأعطاه تقدمة ألف بالديار المصرية، تولى الوزارة ثلاث مرات، فشكرت سيرته وعرف بالمكارم، مات مقتولاً بغزة سنة 748هـ/1345م (المقريزي، السلوك، ج2، ص755؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج10، ص145).

(100) الشجاعي، تاريخ الملك الناصر، 11ب – 12أ؛ ابن كثير، البداية، ج14، ص206؛ المقريزي، السلوك، ج2، ص437-438 .

(101) علم الدين محمد بن أحمد بن مفضل بن فضل الله بن القطب كن من بقايا رؤساء دمشق، تولى كتابة السر بدمشق والقضاء ونظر الجيش مات سنة 760هـ/1358م. (الصفدي، أعيان العصر، ج2، ص255-256).

(102) الصفدي، أعيان العصر، ج2، ص256؛ المقريزي، السلوك، ج2، ص403 .

(103) شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري كاتب السر والمؤرخ المشهور ولد سنة 700هـ/1301. كان إماماً بارعاً وكاتباً وفقيهاً، كتب في الإنشاء لما ولي أبوه كتابة سر دمشق، ثم لما ولي أبوه كتابة السر بمصر أيضاً، صار ولده أحمد هذا هو الذي يقرأ البريد على الملك الناصر محمد بن قلاوون فاستمر إلى أن تغير عليه السلطان، وصرفه من هذه الوظيفة، مات سنة 749هـ/1349 (ابن تغري بردي، النجوم، ج9، ص185).

(104) الشجاعي، تاريخ الملك الناصر، 16 ب–17أ؛ المقريزي، السلوك، ج2، ص464-465. وردت هذه الأخبار عند الشجاعي والمقريزي في حوادث سنة 738هـ في تداعي الحديث عن نكبة تنكز لعلم الدين بن القطب. والأرجح أنها حصلت عند تعيينه في كتابة السر بدمشق سنة 736هـ.

(105) الشجاعي، تاريخ الملك الناصر، 16أ.

(106) الصفدي، أعيان العصر، ج2، ص206.

(107)الأمير بشتاك الناصري: وأصله من بلاد أزبك، وكان من أكابر الأمراء في دولة الناصر محمد، قبض عليه سنة 742هـ/1341م، وصودر وسجن بالإسكندرية، ومات مقتولاً بعد اعتقاله بقليل. (ابن حجر الدرر، ج1، ص477-479).

(108)الصفدي، أعيان العصر، ج2، ص206 .

(109)المستوفي موظف من كتاب الأموال بالدواوين، عمله ضبط الديوان التابع له والتنبيه على ما فيه مصلحته من استخراج أمواله. (القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص466) .

(110)الشجاعي، تاريخ الملك الناصر، 46 ب-47أ ؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج9، ص238.

(111)الشجاعي، تاريخ الملك الناصر، 47أ-ب ؛ المقريزي، السلوك، ج2، ص476-483؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج9، ص102 وما بعدها .

(112)كريم الدين الكبير: هو كريم الدين عبد الكريم بن المعلم هبة الله بن السديد ناظر الخواص ووكيل السلطان وعظيم دولته، كان من كتبة النصارى، وأسلم أيام بيبرس الجاشنكير، ثم عينه الناصر محمد في نظر الخاص، وهو أول من تولى هذه الوظيفة. قبض عليه في 14 شهر ربيع الآخر 723هـ/22 نيسان 1323م، وقيل: شنق، وقيل مات بأمر السلطان (ابن تغري بردي، النجوم، ج9، ص63-64).

(113)المقريزي، السلوك، ج2، ص63-64.

(114)المصدر نفسه، ج2، ص260.

(115)بكتمر الساقي: أصله من مماليك المظفر بيبرس الجاشنكير، ثم انتقل إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون، وحظي عنده لجمال صورته، وجعله ساقياً، وعظمت مكانته عند السلطان حتى تجاوزت الحد. مات في المحرم 733هـ/تشرين أول 1332م، بعد ابنه أحمد بثلاثة أيام. واتهم السلطان بأنه اغتالهما بالسم. (ابن تغري بردي، النجوم، ج9، ص220).

(116)بدر الدين مسعود بن أوحد بن مسعود بن الخطير ولد بدمشق سنة 683هـ/ 128م تنقل في عدة ولايات وأعمال، مثل: حجوبية الحجاب بدمشق، ومصر، ونيابة غزة. مات سنة 754هـ/1353م (ابن حجر، الدرر، ج4، ص348 ؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج10، ص228-229).

(117)الماس الحاجب من مماليك الناصر محمد تنقل في الوظائف، وكبر عند السلطان، وقربه إليه وولاه الحجوبية مات سنة 734هـ/1333م. (اليوسفي، نزهة الناظر، ص213).

(118)المقريزي، السلوك، ج2، ص281 .

(119)القباء: لباس إما أبيض أو أحمر أو أزرق، ضيق الأكمام على هيئة ملابس الإفرنج اليوم. (عاشور، العصر المماليكي، ص460) .

(120)المقريزي، السلوك، ج2، ص289.

(121)المصدر نفسه، ج2، ص316-317 ؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج9، ص74.

(122)المقريزي، السلوك، ج2، ص359 .

(123)المسموح مبلغ من المال يعينه السلطان لأمير من الأمراء فوق إقطاعه، ويأخذه الأمير مسانهة أو مشاهرة ومعناها ما يسمح به السلطان لورثة أحد الأمراء بعد موته (المقريزي، السلوك، ج2، ص19، هامش 5).

(124)المقريزي، السلوك، ج2، ص231-232.

(125)المصدر نفسه، ج2، ص344-345؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج9، ص79-80.

(126)المقريزي، السلوك، ج2، ص417.

(127)الشجاعي، تاريخ الملك الناصر، 12أ.

(128)تعبية جمعها تعابي وتعني ثياب أو قطع قماش (عاشور، العصر المماليكي، ص424).

(129)التفاصيل: مفردها تفصيلة؛ أي الثياب (عاشور، المرجع نفسه، والمكان نفسه).

(130)المقانع مفردها مقنع أو مقنعة هي منديل تغطي به المرأة رأسها، ويكون أضيق من القناع، أو هو النصيف الذي تضعه النساء فوق وجوههن (عاشور، المرجع نفسه، ص475) .

(131)المقريزي، السلوك، ج2، ص432-433؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج9، ص93-94.

(132)الأمير قوصون: لم يكن مملوكاً، بل كان حراً حضر إلى مصر من بلاد الترك صحبة بنت أزبك خان التي تزوجها الناصر محمد، فأعجب به السلطان واشتراه وأرسل ثمنه لأخيه، وعظم شأنه عند السلطان وزوجه ابنته سنة 727هـ/1327م، مات خنقاً في سجن الإسكندرية في شوال 742هـ/آذار 1342م بأمر الناصر أحمد (ابن حجر، الدرر، ج3، ص257-258؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج9، ص37-39) .

(133)سرياقوس: من القرى القديمة في مصر، وهي الآن من قرى شبين القناطر بمديرية القليوبية، (ابن تغري بردي، النجوم، ج9، ص66، هامش 1) .

(134)السعيدية: بلد بين بلبيس والصالحية على ثلاث مراحل من الفسطاط وهو أول الجفار من ناحية مصر وآخرها من ناحية الشام. (المقريزي، السلوك، ج1، ص374، هامش 2) .

(135)الشجاعي، تاريخ الملك الناصر، 31أ – ب ؛ المقريزي، السلوك، ج2، ص460.

(136)خط الكافوري كان بستاناً قبل بناء القاهرة وسيطرة الدولة الفاطمية على مصر، أنشأه الأمير محمد بن طغج ابن جف الأخشيد، فلما قدم جوهر الصقلي إلى مصر جعل هذا البستان من داخل القاهرة، وعرف ببستان كافور، وفي الدولة الفاطمية عرف بالبستان الكافوري، ثم اختط مساكن بعد ذلك. (المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر ا لخطط والآثار، **http://www.al-warraq,com**، ج2 ص158).

(137)الشجاعي، تاريخ الملك الناصر، 32أ ؛ المقريزي، السلوك، ج2، ص461، وهذا الأمير هو الطنبغا الصالحي المعرف في هامش (76)، وليس يلبغا كما ذكر ابن تغري بردي في النجوم، ج9، ص98.

(138)الزركش: الحرير المنسوج بالفضة (ابن تغري بردي، النجوم، ج9، ص20 هامش 5)

(139)الشجاعي، تاريخ الملك الناصر، 32أ–ب ؛ المقريزي، السلوك، ج2، ص461 ، ابن تغري بردي، النجوم، ج9، ص98.

(140)الشجاعي، تاريخ الملك الناصر ، 33 أ –ب؛ المقريزي، السلوك، ج2، ص461-462 ؛ ابن تغري بردي،

النجوم، ج9، ص99.

(141)المقريزي، السلوك، ج2، ص462؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج9، ص99 .

(142)المقريزي، السلوك، ج2، ص462 .

(143)الصفدي، الوافي، ج10، ص422 .

(144)الملك الأفضل محمد بن المؤيد إسماعيل بن الأفضل علي بن المظفر محمود بن المنصور محمد بن المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذي صاحب حماه، تولاها عشر سنين732/1332-742هـ/1341م . ثم نقل إلى إمرة في دمشق . مات سنة742هـ/1341م.(المقريزي، السلوك، ج2، ص615).

(145)المقرزي، السلوك، ج2، ص344.

(146)علاء الدين علي بن هلال الدولة، وقيل: علم الدين، ولد بشيزر، وقدم إلى مصر وولي شد الدوادين بها، ثم صودر سنة 734هـ/1338 وسجن في الإسكندرية، ثم أطلق وطلب إلى دمشق، ثم أخرج إلى شيزر بإقطاع جندي، ومات في قلعتها سنة 739هـ/1338 (ابن حجر، الدرر، ج3، ص136).

(147)اليوسفي، نزهة، ص175-176؛ المقريزي، السلوك، ج2، ص368.

(148)اليوسفي، المصدر نفسه والمكان نفسه ؛ المقريزي، السلوك، ج2، ص368، 370.

(149)المقريزي، السلوك، ج2، ص371 ؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج9، ص85.

(150)اليوسفي، نزهة، ص342-342؛ المقريزي، السلوك، ج2، ص382-383.

(151)ناصر الدين محمد بن بليك المحسني عُين في ولاية القاهرة سنة 730هـ/1330 م إلى أن اعتقل، ثم تولاها ثانية بعد موت الناصر محمد وذلك في سنة 742هـ/1341، ثم ولي الوزارة سنة 755هـ/1354م، وقبض عليه سنة 762هـ/1361 م وسجن في الإسكندرية (المقريزي، السلوك، ج2، ص323، 565، 919، ج3، ص65).

(152)المقريزي، السلوك، ج2، ص418-419 .

(153)الشجاعي، تاريخ الملك الناصر، 28أ-29 ب ؛ المقريزي، السلوك، ج2، ص458 .

(154)الروك مأخوذة من الكلمة القبطية "روش"، ومعناها قياس الأرض بالحبل. واصطلح على استعمالها للقيام بمسح الأرض وحصرها في سجلات، وتقييمها لتقدير درجة خصوبتها ولتقدير الخراج عليها. (إبراهيم علي طرخان، النظم الاقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1968، ص95-96) .

(155)المقريزي، السلوك، ج2، ص127 .

(156)ملطية: مدينة من مدن الثغور دون جبل اللكام شمالي سيس إلى الشمالي الشرقي من مدينة حلب (أبو الفداء، تقويم البلدان، ص235)

(157)قراسنقر المنصوري من كبار مماليك المنصور قلاوون، تولى نيابة حلب ودمشق، كان ممن تآمر على الأشرف

خليل، وكان أيضاً من الذين أيدوا عودة الناصر محمد للملك للمرة الثالثة . مات وهو هارب عند المغول في مراغة سنة 728هـ/1327م (ابن حجر الدرر، ج3، ص246-247؛ ابن تغري بردي، النجوم ج9 ن ص197-198).

(158)محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت 748هـ/1347م)، العبر في خبر من غبر **http://www.al-warraq,com**، ج1، ص276، المقريزي، السلوك، ج2، ص143 ؛ ولمزيد من المعلومات انظر عبد الجبار العملة، نيابة دمشق، ص151-158 .

(159)أبو الفداء، المختصر، ج2، ص13 .

(160)الإقامات هي ما يلزم الجند من المؤونة والعلف وغيرها . وربما قصد بها ما ينزل فيها المسافر من الخيام ولوازمها وما يتبعها (عاشور، العصر المماليكي، ص413) .

(161)المقريزي، السلوك، ج2، ص172.

(162)الصالح صلاح الدين يوسف الأيوبي: يوسف بن أبي بكر بن شادي بن تقي الدين بن تورانشاه بن نجم الدين أيوب بن الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب (المقريزي، السلوك، ج2، ص276).

(163)حصن كيفا: بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر (ياقوت، معجم البلدان، ج2، ص277).

(164)الملك العادل محي الدين بن أبي بكر بن شادي بن تقي الدين بن تورانشاه بن الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب. (المقريزي، السلوك، ج2، ص276-277).

(165)بوسعيد بن محمد خدابنده بن أرغون بن أبغا بن هولاكو صاحب العراق والجزيرة وأذربيجان وخراسان والروم. ويقال فيه أبو سعيد على أنه كنية والصحيح أنه علم. يقول الصفدي: "هكذا رأيت كتبه التي كانت ترد على السلطان الناصر محمد. تولى الملك سنة 717هـ/ 1317، وهو في الحادية عشرة، ومات في أذربيجان في شهر ربيع الآخر 736هـ/تشرين أول 1335، (الصفدي، أعيان العصر، ج1، ص238؛ الذهبي، العبر، ج1، ص296 ح ابن كثير، البداية، ج14، ص201 ؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج9، ص226).

(166)المقريزي، السلوك، ج2، ص226-227.

(167)الإلخانيون هم سلالة القائد المغولي الشهير هولاكو الذين حكموا إيران والعراق منذ سنة 656هـ/1258م وحتى سنة 738هـ/1337م. اتخذ زعماؤهم لقب إلخان تمييزاً لهم عن الخان المغولي الأعظم الذي اشتهر بلقب قا آن.

J.J. Saunders , The History of the Mongol Conquests, Rautledge andkegan paul, London, 1971,PP.108-110.

(168)دمرداش بن جوبان كان في حياة أبيه صاحب بلاد الروم . فلما انقلب بوسعيد على أبيه هرب إلى الشام ومنها إلى مصر. فأكرمه الناصر محمد في البداية، ولما علم أنه هارب، وجاء رسول بوسعيد يطلبه، ولما تقررت

قواعد الصلح بين السلطان وبوسعيد أمر باعتقاله، ومن ثم أمر بإعدامه في 4 شـوال 728 هـ/12 آب 1328م (أبو الفداء، المختصر، ج2، ص29؛ الصفدي، أعيان العصر، ج2، ص252-253 ؛ الذهبي، العبر، ج1، ص290).

(169)أبو الفداء ن المختصر، ج2، ص29،27؛ الصفدي، أعيـان العصـر، ج2، ص2520253 ؛ المقريـزي، السلوك، ج2، ص294-296.

(170)مهنا بن عيسى بن مهنا زعيم آل فضل، ملك العرب، خلع طاعة الملك الناصر محمد، وكان السلطان يلح عليه في ذلك وهو يأبى وهرب إلى المغول، واتهم الناصر محمد بقلة الدين والغدر والمكر، ثم فارق المغـول وعـاد لطاعة السلطان وذكر أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في نومه يأمره بـذلك. مـات في آخـر سـنة 735هـ/صيف1335. (اليوسفي، نزهة، نزهة، ص198-207؛ المقريزي، السلوك، ج2، ص389).

(171)القصر الأبلق قصر بناه الظاهر بيبرس سنة 1267/665م تحت قلعة دمشق في الميدان القبلي (اليوسفي، تحفة، ص504، هامش 4) .

(172)اليوسفي، نزهة، ص198-207؛ المقريزي، السلوك، ج2، ص373.

(173)زين الدين قراجا بن دلغادر (ت 754هـ/1353م) زعيم تركماني أسس إمارة في الأبلستين في جنوبي شرقي الأناضول استمرت من 740هـ/1339 إلى 921هـ/1515. (ابن تغري بـردي، النجـوم، ج10، ص230 ؛ إيمان تيسير العدوان، إمارة دلغادر 740 – 921هـ/1515م، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة مؤتة 2003، ص74وما بعدها).

(174)طرندة: بلدة صغيرة في أعالي نهر قباقب، أحد روافد الفرات الأعلى شمالي ملطية بنحو 33كم. (ليسـترانج، بلدان الخلافة الشرقية، ص153).

(175)المقريزي، السلوك، ج2، ص459؛ العدوان، إمارة دلغادر، ص75.

(176)المقريزي، السلوك، ج2، ص289.

(177)المصدر نفسه والمكان نفسه.

(178)المصدر نفسه، ج2، ص320.

(179)سيف الدين بهادر التقوي كان أحد أمـراء الطبلخانـات بدمشـق تـوفي في شـعبان 730هـ/أيـار حزيران 1330م (الصفدي، أعيان العصر، ج1، ص237).

(180)المقريزي، السلوك، ج2، ص321-33،322-334.

(181)بدر الدين محمد بن التركماني أحد رجال الناصر محمد، دخل في خدمته منذ عودته للعرش للمرة الثالثة، أمـره السلطان سنة 713هـ/1313م لعمل جسور وقناطر للجيزة، وتولى الكشف بالوجه البحري حتى عـزل سنة 737هـ/1336م (المقريزي، السلوك، ج2، ص124، 130، 410).

(182)المقريزي، السلوك، ج2، ص381.

(183)المصدر نفسه، ج2، ص383-384 .

(184)الشجاعي، تاريخ الملك الناصر، 56 ب – 57 أ؛ ابن كثير، البداية، ج14، ص217؛ المقريزي، السلوك، ج2، ص495.

(185)ابن كثير، البداية، ج14، ص217؛ المقريزي، السلوك، ج2، ص496.

(186)التسمير: عقوبة تقضي بتعرية المحكوم عليه من الثياب، ثم يربط إلى خشبتين على شكل صليب؛ وتدق أعضاؤه في الخشب بوساطة مسامير غلاظ (ابن تغري بردي، النجوم، ج9، ص23، هامش 2؛ عاشور، العصر المماليكي، ص423).

(187)الشجاعي، تاريخ الملك الناصر ، ص57 ب.

(188)التوسيط: عقوبة تقضي بضرب المحكوم عليه بوساطة السياف ضربة قوية تحت السرة تقسم الجسم نصفين من وسط، وتنهار أمعاؤه إلى الأرض (عاشور، العصر المماليكي، ص424).

(189)المقريزي، السلوك، ج2، ص497.

(190)الشجاعي، تاريخ الملك الناصر، 57 ب.

(191)المصدر نفسه، 58 أ.

(192)الشجاعي، تاريخ الملك الناصر، 58أ.

(193)جنغية (جنغاي) أحد مماليك تنكز المقربين، ويقال إنه قريبه قبض عليه، ووسط بعد القبض على سيده في المحرم 741هـ/تموز 1340م (ابن حجر، الدرر، ج1، ص539) أما طنغية (طنغاي) مملوك آخر لتنكز وكان أمير آخوره؛ أي المسؤول عن إسطبلات خيله. وأمسك هو الآخر ووسط بعد القبض على تنكز (ابن حجر، الدرر، ج2، ص220).

(194)الشجاعي، تاريخ الملك الناصر، 58 ب – 59 أ.

(195)المصدر نفسه، 59 أ.

(196)المصدر نفسه، 59 ب؛ الصفدي، الوافي، ج10، ص425؛ ابن شاكر الكتبي، فوات، ج1، ص253.

(197)الشجاعي، تاريخ الملك الناصر، 59 ب.

(198)المصدر نفسه، 60 أ .

(199)المصدر نفسه، 60 أ – ب .

(200)المصدر نفسه، 60 ب –61 أ

(201)الصفدي، الوافي، ج10، ص425-426؛ ابن شاكر الكتبي، فوات، ج1، ص253؛ ابن حجر العسقلاني، الدرر، ج2، ص58.

(202)الشجاعي، تاريخ الملك الناصر، 62أ .

(203)الصفدي، الوافي، ج10، ص426.

(204)المقريزي، السلوك، ج2، ص498 .

(205)أمراء المشورة: هم الأمراء كبار السن الذين يجلسون على بعد حوالي خمسة عشر ذراعاً عن يمين السلطان

ويساره إذا جلس السلطان للمظالم، ويليهم بقية الأمراء وأرباب الوظائف وقوفاً من ورائهم (جلال الدين السيوطي (ت911هـ/1505 م)، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، موقع الوراق. (http://www.al-warraq.com، ج1، ص256.

(206)سيف الدين طشتمر بن عبدالله الساقي، المعروف بحمص أخضر؛ لأنه كان يحب أكله تولى نيابة صفد سنة 737هـ/1336 واستمر حتى مطلع سنة 741هـ/تموز 1340، ثم نقل إلى نيابة حلب، وولاه الناصر أحمد نيابة السلطنة بمصر، مات مقتولاً بالكرك سنة 743هـ/1342م. (ابن حجر، الدرر، ج2، ص219-220).

(207)الشجاعي، تاريخ الملك الناصر، 62أ-ب؛ المقريزي، السلوك، ج2، ص498-499؛ الصفدي، الوافي، ج10، ص426.

(208)المقريزي، السلوك، ج2، ص498-499؛ الصفدي، الوافي، ج10، ص426؛ ابن شاكر الكتبي، فوات، ج1، ص254.

(209)موسى بن مهنا بن عيسى بن مهنا بن مانع بن حديثة بن عصية بن فضل ابن ربيعة أمير آل فضل، مات بتدمر سنة 742هـ/1341م (المقريزي، السلوك، ج2، ص615).

(210)ملطفات: رسائل تكتب إلى الأمراء للترضية والمدح أو التعزيز والتأمين تمهيداً لما يزمعه لهم السلطان من عقوبة. (ابن تغري بردي، النجوم، ج9، ص23، هامش 3) .

(211)المقريزي، السلوك، ج2، ص499 .

(212)سيف الدين أللمش الحاجب كان تنكز قد أراد تعيينه نائباً لجعبر، ثم كتب فيه للسلطان، وجعله حاجباً كبيراً، وأمسك تنكز وهو في هذا المنصب في دمشق . مات سنة 746هـ/1345م (الصفدي، أعيان العصر، ج1، ص178).

(213)القابون قرية على بعد ميل من دمشق على طريق القاصد إلى العراق (ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، ص329).

(214)الصفدي، أعيان العصر، ج1، ص256؛ الصفدي، الوافي، ج10، ص426؛ ابن شاكر الكتبي، ج1، ص254).

(215)إبراهيم بن أبي بكر بن شداد بن صابر مقدم الدولة، كان الناصر محمد يعظمه حتى وفاته. وبعد ذلك نكب وصودر، مات سنة 744هـ/1343م (الصفدي، أعيان العصر، ج1، ص11) .

(216)الصفدي، أعيان العصر، ج1، ص256 ؛ الصفدي، الوافي، ج10، ص427-428؛ ابن حجر العسقلاني، الدرر، ج2، ص60؛ ابن شاكر الكتبي، فوات، ج1، ص254؛ المقريزي، السلوك، ج2، ص500، 507.

(217)ابن كثير، البداية، ج14، ص220 .

(218)الصفدي، الوافي، ج10، ص429-432؛ الكتبي، فوات ج1، ص256-258؛ ابن حجر، الدرر، ج2، ص60-61؛ المقريزي، السلوك، ج2، ص507-508؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج9، ص118-122.

(219)محمد أحمد دهمان، ولاة دمشق في عهد المماليك، دار الفكر، دمشق، (د.ت)، ص176-179.

(220)جركتمر بن بهادر رأس نوبة كان من مماليك المظفر بيبرس الجاشنكير، ثم صار ممن مماليك الناصر محمد بن قلاوون، وكان أحد الذين أوكل إليهم أمر تنكز بعد تغير السلطان عليه، مات قتلاً بالإسكندرية سنة742هـ/1341م (المقريزي، السلوك، ج2، ص61-70، 76، 605، 615).

(221)المقريزي، السلوك، ج2، ص509؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج9، ص122.

(222)ألنوين أرتنا وقيل أرطغاي والي إيلخنات فارس على بلاد سلاجقة الروم. ولما مات الإلخان بوسعيد كتب أرتنا للسلطان الناصر محمد، وعرض عليه أن يكون نائبه في ديار سلاجقة الروم، فوافق الناصر محمد على ذلك وكتب إليه: "نائب السلطنة الشريفة في البلاد الرومية"، وبقيت رسله تتردد إلى مصر حتى مات في المحرم 753هـ/ شباط –آذار 1352. (ابن تغري بردي، النجوم، ج10، ص226).

(223)المقريزي، السلوك، ج2، ص509 ؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج9، ص122 .

(224)جوبان كبير مماليك تنكز كان حياً سنة 736هـ/1336م؛ إذ وصل إلى القاهرة في شهر رمضان736هـ/ أيار 1336 يخبر عن معركة بين زعماء المغول في العراق انتصر فيها على باديشاه (اليوسفي، تحفة، ص304). وهو ليس الأمير الكبير جوبان بن عبدالله المنصوري المتوفى سنة727هـ/1327 م، كما عرّفه عبد الجبار العملة في دراسته نيابة دمشق الشام في عهد الأمير تنكز الحسامي، ص135.

(225)طشتمر أخو بتخاص قبض عليه في نيابة بكتمر الجوكندار للسلطنة في مصر (23 شوال 25/709 نيسان1310-17 جمادى الأولى 711هـ/2تشرين ثاني 1311) واعتقل في الإسكندرية حتى رجب735هـ/ آذار 1335م حيث أفرج عنه، وأنعم عليه بأمرة في دمشق (اليوسفي، تحفة، ص232-234؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج9، ص87). وأما بتخاص (بدخاص المنصوري) فهو أحد مماليك المنصور قلاوون، تولى نيابة السلطنة في صفد 1302/702 حتى سنة 702هـ/1302 (ابن حجر، الدرر، ج1، ص472-473؛ طه الطراونة، مملكة صفد، ص273).

(226)المقريزي، السلوك، ج2، ص509 ؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج9، ص122-123.

(227)حسن بن دمرداش بن جوبان صاحب تبريز والعراق، كان داهية صاحب حيل ومكر وخديعة، توفي سنة 744هـ/1343م . (ابن تغري بردي . النجوم، ج10، ص88).

(228)يلبغا اليحياوي: من مماليك الناصر محمد، ترقى في الرتب إلى أن ولي نيابة السلطنة في حلب، ثم في دمشق. مات سنة 748هـ/1440 م قتلاً إثر حركة التمرد التي قادها في السنة السابقة (الصفدي، الوافي، ج8، ص352).

(229)الصفدي، الوافي، ج10، ص425؛ الصفدي، أعيان العصر، ج1، ص256؛ الكتبي، فوات، ج1، ص253؛ ابن حجر، الدرر، ج2 ،ص96.

(230)ابن حجر، الدرر، ج2، ص96-97 .

(231)انظر، ص22.

(232)ابن خلدون، العبر، ج5، ص442 .

(233)ابن اياس، بدائع الزهور، ج1، ق1، ص478.
(234)الصفدي، الوافي، ج1، ص423؛ الصفدي، أعيان العصر، ج1، ص456.
(235)ابن تغري بردي، النجوم، ج9، ص220 ؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، 2 ج؛ **http://www.al-warraq,com**، ج1، ص281 .
(236)اليوسفي، نزهة، ص124-125 .
(237)الصفدي، الوافي، ج4، ص370؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج9، ص148.
(238)حياة الحجي، "الأمير تنكز الحسامي"، ص256؛ عبد الجبار العملة، نيابة دمشق، ص143.
(239)حياة الحجي، "الأمير تنكز الحسامي"، ص40؛ عبد الجبار العملة، نيابة دمشق، ص135.
(240)انظر هامش 225.
(241)المقريزي، السلوك، ج2، ص118-131.
(242)منكلي بغا الفخري أحد مماليك الناصر محمد بن قلاوون المقربين توفي سنة 1352/753 (المقريزي، السلوك، ج2، ص886).
(243)المقريزي، السلوك، ج1، ص237.
(244)المصدر نفسه، ج1، ص249.
(245)المصدر نفسه، ج1، ص253.
(246)الصفدي، أعيان العصر، ج1، ص395.
(247)المصدر نفسه والمكان نفسه.
(248)ابن حجر، الدرر، ج2، ص219-220؛ المقريزي، السلوك، ج2، ص401، 304؛ الطراونة، مملكة صفد، ص276.
(249)الصفدي، أعيان العصر، ج1، ص355 .
(250)اليوسفي، نزهة، ص321.
(251)الشجاعي، تاريخ الملك الناصر، 62 ب—63 أ .
(252)المصدر نفسه 65 ب — 66 أ.
(253)المقريزي، السلوك، ج2، ص118.
(254)الصفدي، أعيان العصر، ج1، ص395 ج2، ص197، 199؛ المقريزي، السلوك، ج1، ص118.
(255)الصفدي، أعيان العصر، ج2، ص197.
(256)المقريزي، السلوك، ج2، ص508.
(257)الشجاعي، تاريخ الملك الناصر، 67 ب.
(258)المصدر نفسه، 66 أ — ب.
(259)الحجي، "الأمير تنكز الحسامي"، ص45-46.